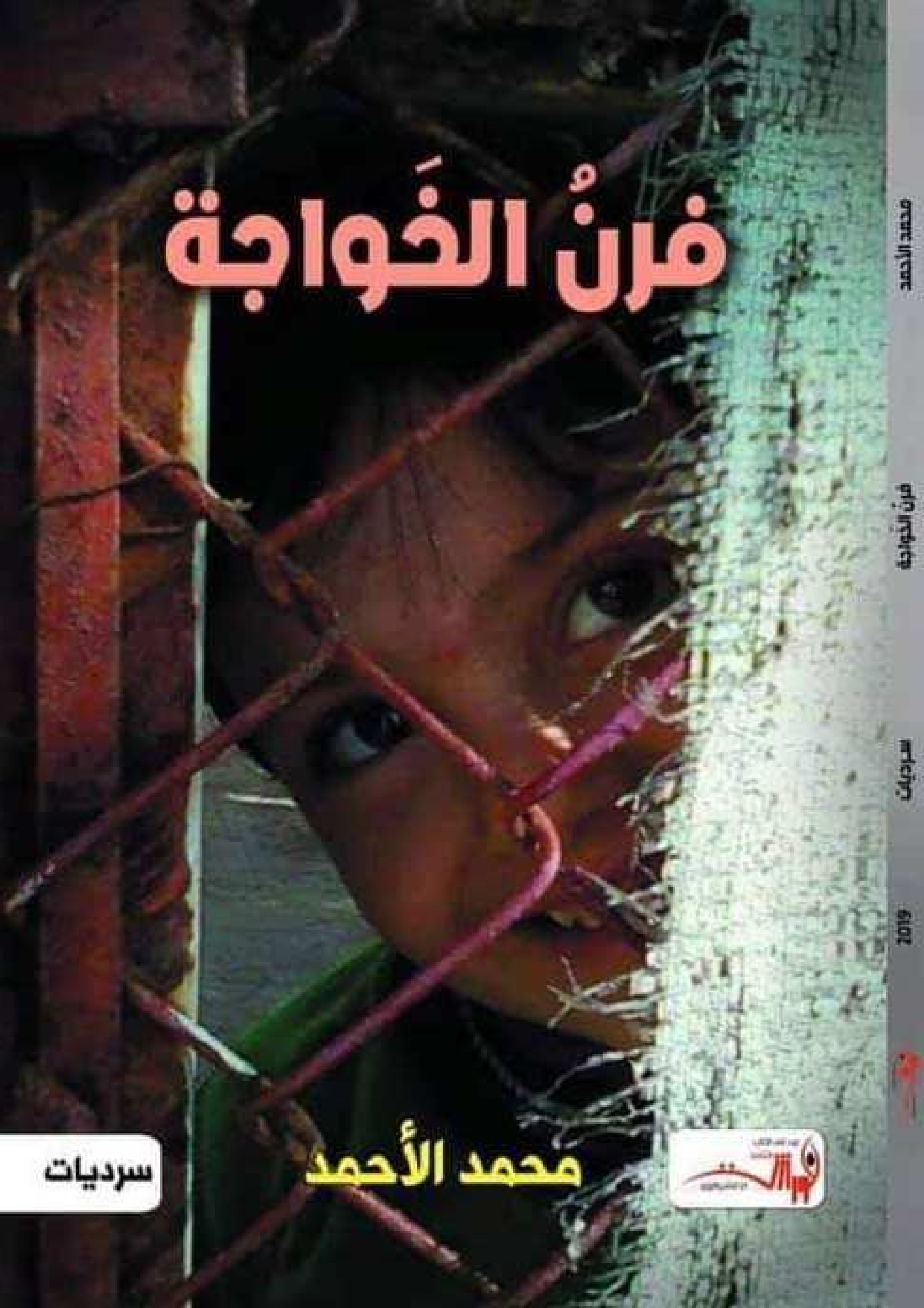

فرنُ الخَواجة
محمد الأحمد

سرديات

2019

فرنُ الخَواجة

سرديات

الكتاب : فرنُ الخَواجة

المؤلف: محمد الأحمد

الصنف: سرديات

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : ٢٠١٩

ISBN : 978-9922-9117-5-5

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (1866) لسنة 2019

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الدار : بغداد - شارع المتنبي - مجمع الميالي - الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من اشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

فرنُ الخَواجة

سرديات

محمد الأحمد

إهداء

الى العضيدة الفذّة،

والصديقة الأبدية "كُليزار أنور" ؛

كلّ كتابة صافية قرأتها

كقلبك.. مُعلّمي الأعظمَ والأبهى.

(رُبَّ أرضٍ من شذىً وندىً..

وجراحاتٍ بقلبي عِدى..

سكتت يوماً فهل سكتت؟

أجملُ التاريخِ كان غداً[1])

الأمواتُ ليس لديهم الحق في تقييّم الأعمال الحيّة.

[1] أغنية فيروز من الحان الفنان محمد عبد الوهاب وكلمات الشاعر سعيد عقل.

الحديقة الافتراضية

في البدء كانت حاجتي الماسة الى ايجاد اسم اتخفى خلفه. لأكتب ما أريد كتابته تخلصا من اية ملاحقات آنية، او ملامة. فانا اريد كتابة بوح خاص بي يحررني من تلك القضبان والتقيد والنفي. فالكتابة حرية مفترضة، ومساحة نقية للتنفس. لأطلق الصوت الذي حبس في داخلي طويلا وخاصة بعد ان زادت الرقابات وصار المرء منا لا يحسن الاختباء وراء أسمه.. حيث الاسم يطارد صاحبه ويجعله مطيولاً أينما حل. فصرت احتاج الى ثغرة لأفك بها قليلا من ضائقتي وشعوري باني مكشوف امام الملأ. ولابد ان اجد طريقة لأعبر بها عن ذاتي وأحلامي وكينونتي. فوجدتني اكتشف لعبتي الخاصة، لعبة تمنحني المتعة الكبيرة، ولا تساويها اية متعة. فلا غرابة، ابداً، عندما فتحت صفحة الهوتميل ورحت أُلفق اسما أنثويا لا يحتاج الى تعريف، ورحت ادخله على الـ(فيسبوك)، وصار الاسم بعد يومين صاحبا لعشرات الأصدقاء واغلبهم من الرجال، وإغراقا في الاثبات قد استعنت ببرنامج (فيديوي) بإمكانه ان يعرض ما اريد عرضه عبر الماسينجر، اي فيديو أختاره من مكتبتي ويعرض للطرف الثاني كأني اعرض له من كاميرتي.. وهكذا بدأت ابحث عن مقاطع (فيديوية) تفيدني في لعبتي، وعبثي. فصار من السهل علي ان اعرض ما اريد ولمن أريد. وساعة اريد. صرت أختبر ذلك مع أصدقائي وأنا في غاية المتعة، ثم دخلتُ الى (ووردي[٢]) وفتحته على صفحة جديدة.. قلت له:

[٢] من مجموعة البرامج المكتبية المهمة.

- أيها المساعد إصغ اليّ جيدا فانا ما عدت احتمل كل هذا الانتظار..

بعد ذلك رحت ارقن اختصارات بعض الجمل الشهيرة المستخدمة في الحوارات السريعة، فهي تجعلني سريع الإجابة غير متلكئ، وعفوي. فهذه من صفات العصر فأي بطء يعطي للطرف الاخر شكاً بعدم مصداقية ذلك الشخص. فعالم اليوم يقوم على سرعة لكسب ثقة الاخر لأجل ان لا ينفض عنه.. مؤمناً بان الفكرة متصاعدة، ولست قادرا على اللحاق بها لأجل تدوينها.. ولست مؤهلا بتدوين جوانبها كونها تستند على الوضوح ولا تقبل التهويم، على الرغم من انني اعددت دفتري الذي ملأته بملاحظات وتدوينات اجهدتني طويلا، ولم اجد وقتا لإعادة قراءة ما كتبته، واستعدادا لما اندفعت اليه بكل تهوري.. كنت على يقين بان كل شيء ينشطر الى اثنتين، وأربع، وثمان، وست عشرة.. الى ما لا نهاية من الاعداد المضاعفة. فتصبح المجموعات متوالدة في الفراغ الافتراضي، وربما تظهر امامي اسئلة ابعد من حدودي، اسئلة تتطلب اجوبة حقيقية، لابد من اللحاق بمصادرها، وتطورها.. وبسرعتها وفهمها، ولابد من اختصار هذا التدفق العنيف.. لعبتي تتطلب سرعة بديهة وثقافة وانفصالاً عن ماض عقيم، حيث لا وقت فيه لبناء كذبات تشبه مثيولوجيات الأكاذيب القديمة، تريد اساسا من نوع له عقليةٌ غير عقلية هذا المحيط، فثمة عقول امامي لا تعترف بالانضغاط والانبعاج، والبكاء على الاطلال المتهرئة.. عقول متعلمة. خالطت

وتلاقحت افكارها بنضج. انه عصر تفكير ودراسة وتحقق، وتأصيل. فلا وقت له لمتابعة الاشياء العقيمة، لان انسانها عارف ومتمكن من علمه، ويحتاج الى تعليل النتائج واسبابها، وعمقها.. انه عصر الفكرة الاكثر قناعة والمبدأ الاجدى نفعاً، فالأسرع من يكسب، والوقت كفيلٌ بخسارتك ان لم تتابع بسرعتك، فالأحرف الواضحة هي التي تتفوق، بمقدار ما تفرضه من حضور بين مقتنيها، فالصورة اصدق انباء من الكتب، والتفاعل العاقل ينتشر بسرعة البرق فهي كتابة تنتشر فورا وليست على حائط في جامعة او شارع عام، خلال ثوان يتشكل موقف، ويؤيد فورا. صوب اية فكرة، سواء كانت مفترضة او مثبتة وستجد مكانا وتواصلا معها. (قوة العلم تظهر في النشر المفتوح، مع صعود الإنترنت الذي لم يعد مشروطاً بسعر الورق - مايكل شيرمر). مرة اخرى هللت جذلاً وأنا احدث (ووردي) كصديق حميم... قلت كتابة :

- اعلم يا صاحبي.. اني احتاجك بتدوين وصفها !!.

بعدها فتحت برنامج (الفوتو شوب[٣]) وقلت له والآن يا مختبري الحبيب هات لنرَّ ما عندك من قوة..

ورحتُ استعرض الصور بحثاً عن صورة في مخزن الصور، واحدة تلو الأخرى.. فأخذت من صورة لملكة جمال (ايرانية) دوران وجهها، وأخذت من (باكستانية) عينيها الواسعتين

[٣] البرنامج الخاص بإصلاح وتعديل الصور

وعمق لونهما الاخضر الرائع، ثم انفاً اقنى لـ(ماليزية) كأنه منحوت بأدق ازاميل الخالق حساسية.. وشفتين كرزيتين لـ(هندية)، مرشحة لان تكون ملكة جمال الكون، ووجنه صافية لـ(شامية) ثم شعراُ ذهبياً وأذنين وصدغاً نظيفاً من (عراقية)، لم يغطهما ايشارب.. ثم اخذت جسداً مموشوقاً طويلاً من (تركية) كأنها راقصة لخليفة عثماني. اما ساقاها فأخذتهما من (قوقازية)، لها فخذان مرمريان بنار تشعل حرباً كونية مثلما اشعلت (هلين) حرب طروادة كما ذكرها (هوميروس) في اقدم ملحمة، ولم انسّ أخذ قدمين متوسطتين لساقين رائعتين لـ(يمنية) اظنها تعمل في احدى محلات بيع الالبسة الشهيرة في (دبي)، هكذا استطعت دمج صورة مثالية كما صنعها بطل فيلم قام ببطولته (الباتشينو[٤]).. ركبت أجزاء المرأة وفق ذائقتي، وجعلتها تضجّ شهوة ورغبة، وكأني استنطقتُ القامة الهيفاء بكاملها حسنها كرسام محترف يعرف مقايس الفتنة.

ثم نسختُ ما صنَّعتُ الى (هارد) خارجي تأميناً لأي طارئ قد يحدث، فانا افترض ان يهزّ حاسبي فايروس عاصف وربما يضيّع لي ما انجزته من عمل، فاليوم تشتعل حرب تخريبية للمعلومات التي نجمعها في حواسيبنا.. اذ بقيتُ ليلة البارحة كلها باحثاً عن (الفايروس) الذي استوطن حاسبتي، وجعلني في حالة قلق يزداد كلما ثقلت عن تنفيذ ما اريده منها، انها اشبه بفرس حرون يريدني ان اكون معه كما يريد وليس كما أريد. غالبا ما اقضي وقتي السائب مع

[٤] احد اهم الممثلين والمخرجين على هذه الارض

حاسبتي من النهار أو الليل، اجلس اليها كطفل ترك لعبه واختارها. انشغلت بها بمتعة وراحة نفس. وأكاد اختنق كلما اصابها مكروه، صارت تسري في دمي والحق اقول لا يمكنني ان احتمل انقطاع تيار الكهرباء.. لأعود اليها ملهوفاً، وهكذا يعود الدم الى وجهي وكأني وجدت ضالتي المنشودة..

بقي عندي عمل اخر فنقرت على ايقونة برنامج مختصٍّ بتغيير الاصوات:

- وأنت يا حبي ألا تساعدني في مهمتي فأنت الوحيد من سيسمعني تغريد البلابل.

برغم كل الزخات الماسنجرية التي انهمرت عليّ من هنا وهناك.. تريد الكلام، بعد ان اهملت دفاتري الرجالية.. او لنقل على الاغلب الاصوات المتنكرة بالاسم الرجالي، فالعالم كله مفترض لا فرق في ألاسم او المكان. ولا يمكن الاستدلال من الاسم على جنسه فالغالب انها تخفي شخصا افتراضياً لا ينكشف بيسر، لأجل جذب الجنس الآخر. فالذكر يتوجه به الى انثى، او انثى الى ذكر، او مثيل الى مثيله. والأطرف أنه بعد حين يكتشف ان الانثى ذكر، او العكس بان تلك الانثى تتبين بعد حين ذكراً مثله، وهذا ما يضحكني الى حدّ انني افقد سيطرتي على مفاتيحي، فانسى باقي حروفي بعد ان كتبت نصفها.. عصرٌ باهر ليس فيه خرافة تعطل العقل، وتعلقه على الحائط، عصر فيه المعلومة تتناثر كرذاذ الماء، فلا بد من ان تلامس

وجهنا حتى نصحو من غفلتنا. وتتسرب الى العقل كاستنتاج حقيقي، انه عصرٌ تهدر فيه مكائن من اجل ان تستنزف ذاتها وتتحول الى جيلها التالي، الاجيال في البرامج، الآلات. حتى الانقلابات صارت تتصدر الاخبار كجيل جديد من الافكار لا يعتمد الدبابة والمدفع. وقبل ان ادخل (النت) كفارس استعد لحرب ضروس.. سألت نفسي:

- ما الغاية من كل هذه اللعبة؟

لأجل الكتابة، فحسب. أتنكر لرجولتي بالكامل.. فأي مأزق جينيّ عظيم هذا الذي سأنحو نحوه.. أنزوة وحماقة. أم حفرة أدفن فيها رجولتي، واين سيحل بي هذا المطاف المجهول.. لماذا كل هذا الجهد الذي لا تساويه اية غاية مهما كان طهر مقصدها. فهي تعادل خسارتي لاستقرار في قرارتي.. كما يقول برتراند راسل (الضجر مشكلة قاتلة لعالم الأخلاق لأن نصف خطايا الإنسان سببها الخوف من الضجر).. أتراني أصل الى نتيجة.. أم الى التيه و المجهول؟..

كانت ساعتي تشير الى منتصف الليل، بعد ان اخذت البرامج معظم حيوتي، ولكني كنت اكثر اصرارا على الدخول، لأجل ان اجد فسحة كي اجدد بها نشاطي وامرح قليلاً قبل ان اطفئ حاسوبي وأعود الى زوجتي التي تعودت اهمالي لها من جراء اهتمامي الزائد، بالبرامج، والنت، وصخب الـ(جات).. ربطت الحاسوب بالنت.. وسرعان ما اكتشفت بأن حاسوبي صار سريعاً على غير عادته. وتركت حضور الاسم الجديد يظهر على السطح كفقاعة تصعد الى

اعلى. بينما رحت اطلّ على زوجتي التي نامت، وتركت لي الحبل على الغارب، دون ان تدعوني الى مشاركتها السهرة بمسلسل تركي تتابعه منذ شهرين وأكثر.. تركت الضوء شحيحا في غرفة النوم وحاسوبها مركون قرب سريرها، تغطُّ في نومها.. فقررت بعدها ان اعود الى حاسوبي. بعدها احضرت قدح قهوة، وبضعة سجائر. وجدتُ دائرة معارفي تتسع بعيداً وقريباً. سجى الليل منحني حرية حقيقية، وغير مفترضة. فأغلب سكان الارض يجدونها موعدا مناسباً لالتقاء الشتات. بدت صفحتي الشخصية الافتراضية تعجّ بطلبات الصداقة، فكان علي ان ادقق قبل الموافقة.

(ساره منيف) أردنية لم تذكر سنة ميلادها، نشرتْ صورة (باربي[٥]) بدلا من صورتها، حالة مقنعة القبول، فأغلب العازبات من نساء الشرق يتنكرنَّ لأعمارهن، ويتقنعنَّ بصور بريئة باحثات عن شريك يقدر لهنّ قناعتهنَّ الجديدة. قمتُ برفض (مريم الجريحة) لانها لم تترك اثرا دالّا عليها. وفوراً وافقت بقبول (سوزان صبري) فهي استاذة جامعية معروفة قبلت صداقتها.. لربما تكون مستقبلا حلقة وصل بين امرأة أخرى بين طالباتها. اما (نادية منير، سافرة فادي، نائلة محمد، ريم المهاجرة، بيداء رحماني، ندوة مهدي، الخ).. من مختلف الجنسيات والأوطان. قبلتهّنَ بالرغم من اني شككت بأنهم رجال قد جذبتهم صورتي الافتراضية فيطلبون صداقتي على اساس انوثتي المفترضة. فالأسماء المجردة وحدها غير مقنعة. اما الدعوات

[٥] انموذج دمية شهيرة

التي جاءتني بالأسماء الرجالية فاخترت منها اصدقائي المقربين، فقط. ليتسنى لي العبث معهم ساعة اريد. بقيت امامي خطوة أخيرة، وادخل الى المعترك والحوار لأكتشف قدراتي الذهنية واطلق لخيالي العنان، علني استطيع ان اكتب شيئا مغايراً من خلال وحي تلك الحوارات التي قد تشحذ لي مخيلتي في كتابة عمل ادبي جديد. فالكتابة الابداعية تحتاج الى حافز ما، يستنفُطها ويحفرُ عميقاً في المجاهيل.. تيقنتُ بفرح غامر اني على مشارف منجم مدهش للأفكار والصور. سوف يمنحني قدرة على اختراق المألوف، لعله يحقق لي مرادي الطموح. راجعت صفحتي الشخصية، ورحت أتأكد من ضبط ملفي الشخصي الافتراضي. لقيتني اقرأ ما نُشر هنا وهناك.. بعضهم نشر صور اولاده في حفلات خاصة، والبعض الاخر نشر اغاني قديمة وجدها مصادفة على (اليوتيوب)، ببعض اللقطات الطريفة..

- يتطلب الامر مني انضباطاً صارماً حتى استطيع ملاحقة مجريات الأحداث.

فالكتابة كشف حيّ، اذ تتقنَّع بقناع ما، وهي لن تصل الى مراميها. فمن يريد ان يشيع غاية معينة فعليه اقناع الطرف الآخر بغايته. القناعة همزةُ الوصل الرابطة. هناك من يريد ان يروج لدين او طائفة او وضع سياسي معين، عليه ان يقنع نفسه اولا قبل ان يقنع غيره. فهناك المتربص لزلّة ما حتى يكون لها بالمرصاد ثم يكشف غايته، بات العالم صغيرا على سرعة التصديق. لان الاخر له قناعة اخرى

ستكون عائقا حقيقيا يواجه صاحب الغاية، فهو غالبا ما يصطدم بمنطق عقلاني يوقف زحف الغاية، ويبطلها.. الحجّة مهما كانت قوية فهناك ما يعادلها من حجج او ما يدحضها. الكلام العابر لن يبيت طويلا ما لم يكن مسنودا بالوقائع المقنعة العقلانية. التجوال في المعاني والمقاصد يحرك العقل باتجاه الرفض او الإسناد. الامر الواهن، يصدر من عقل انفعالي حجته واهنة. فيكون التعليق على امر معين اهم من المفتاح الذي يفتحه.. تلك متخفيةٌ بصور تجتذب، وتتلون بالأشياء، تعطيها التعليقات المنطقية، رونقها الجديد. فالصورة باتجاه والكلام عنها في اتجاه اخر. نشر احدهم صورة مستلة من مجلس النواب المصري تظهر احدهم قد شمّر ساعديه مباشرا بالأذان. ونشر بجانبها القول التالي: (رفع الأذان في غير زمانه ومكانه، بدى اشبه برجل قد مسدّ لحيته، وشمّر عن ساعده، بعد ان مصّ ما بقي من طعام بين أسنانه ومضمض فمه بلعابه، وثم تنحنح قاشطاً بلغمه.. فاراد ان يراهن بأنه المندوب الوحيد عن الربّ، ويرفع عقيرته عالياً ليثبت ان الاخرين اقل منه حبّا لله، يا للأمر المضحك. هكذا بقيت اضحك حتى انجز المذيع نشرة اخباره).. فابتسمت وقلت بلا شك هذا موضوع يغريني لأجل خوض غماره.. كان هذا الموضع الذي اتمنى ان أخذه شرحاً، ومن منظور عصر أنفتاح وجدية. فأجلت الخوض بالموضوع. فهذا العالم الافتراضي لا يقيم فرقاً بين الأجناس، او بين الافكار. فشرقنا الذي مسّه الحرمان من كل حدب وصوب. لكنني لم استدل الى حقيقة الصورة الانثوية بعد التدقيق بها: أكانت صورة

مركبة مثل صورتي، ام حقيقية غير مركبة؟.. من بعد ان جذبتني صاحبة الصورة المنشورة، فآثرت ان لا اخذ بها فأقع في فخّ المحظور، ضحية غفلتي المبكرة. اثرت التحقق قبل الشروع. فطلبت منها اولا بكل احترام – كأنثى تتصف بالخفر والحياء. تودّ التأكد من محدثها ان كانت أنثى؟.. انتظرت قليلا، فوافقت، من بعد تردد. قلت مع نفسي بان هذا الشخص الافتراضي قد ذهب مباشرة وقرا معلومات عن المرأة التي استأذنته، بالدخول. وبعجالة احترافية باغتتني بطلب فتح الكاميرا، فلم اوافق على فتحها، بعجالة، كما كنت اودّ وأتمنى. لكني وافقت على فتح الحوار بالصوت، فقط. حتى قلت لها:

- (نعم)

فجاءني صوتها هامساً متموجاً ببحّة طبيعية لأنثى حقيقية..

- اهلا وسهلا من معي؟

كنتُ فرحاً بهذه الغنيمة.. بقيت مترددا كي لا يخونني برنامج تحويل الصوت.. وكأني انا الوحيد الذي سمع صوتها البديع، وهمساته العذبة، بكل حواسه، وقلت مؤكداً:

- (نعم)..

بمثل ما قالت.. صمتت لحظات، وتأملتُ الصورة جيدا، صرت على يقين بأنها (امرأة) محدثتي، وبدى لي انها وثقت بي ففتحت

كاميرتها لي، وأنا بقيت متاخراً، مفترضاً الخفر والحياء من اول لقاء. عصف بي ارتجاف عميق كالزهوّ ولم اسمح لها بان تشاهدني، مباشرة. ثم بدأتُ بعرض ما اريدُ ان تشاهده.. بينما رحت اتملاها بوسع شاشتي. بدت لي الصورة لسمراء غضّة مزنرة بابتسامة ملؤها الإشراق. تتقوس تفاحتاها كنبتتين تفتقتا من برعمين شاهقتين بعنفوان على نحرها بكل إباء. فيهما غواية انثى جاذبة سادرة بالليونة والرغبة. صبية غضة الوجه، صبوحة البشرة، شفتاها الكرزيتان، كرحيق نديّ. يوعدان برضاب يتواصل بطعم العسل. شفتاها اللتان ستنزلان تمرغاً في بحر الخصوبة، الطريّة، الناعمة، المترعة بالوعود.. لها ردفان كأنهما مصاغان بلوعة بهيّة توازي كل ما فيّ من حاجة، ساق عبلة، صافية. تختلسُها العين، تتسلقُها بتمعنٍّ لذيذٍ، لتصل الى رهافةِ خصرٍّ هفهاف، ممتلئ بنعمة لا حدّ لها.. كفاكهة بالغة النضوج، وشديدة الغواية. لفتتني استدارة بطنُها، شككتُ برحم ممتلئ. ارتبكت من وراء أقنعتي، وأسواري، إرتباكاً كبيراً. فكلّ من سمعني أتحدث في موضوع ما.. بلا شك انه قال عني بأنني قوي، إستناداً الى ما أقوله بكل ثقة، فانا اقول كل ما اؤمن به، فيعكس ذلك للآخرين قوة هم يفتقدونها، فاحتكم بها، ولكنني والحق أقول اني واهن الى درجة لا اقوى إلا على مصارحة نفسي فانا افهم القوة بأنها معرفة صدق، وحسب.

بقيت مترددا لا اقوى على اي قول، اردت الاعتراف امام هذه الانثى الجميلة، التي شكلتها. وان اعترف بزيف برامجي. لاعود الى

رجولتي. اردت ان اسلم اقنعتي واستعيد نفسي. فقد كان جمالها يفوق التوقع وما يبتدعه الحاسوب منه. اصبحت اطارد صورة مثلى تسكنني منذ زمن طويل تجلجل في ذهني وتمنعني عن التركيز. وقد وجدتها في لحظة مفترضة، اذ صرت على يقين باني لو تركت هذه الفرصة لأمسيت فوق سرابها، علي امسك بها جيدا، وأسندها كامرأة خصبة. حيثما نشأت هذه الفكرة الافتراضية اوقفتني عن الاندفاع؛ كمن يقف امام المرآة، ويقول ان هذا شكلي. وان اعود اليه بحقيقتي رجلاً. يجب ان افرضه بجمال ما في داخلي، لا ان أزوّقه، واغلّفه بقناع، وان لا أتعاطى مع القناع على انه امر واقع. اردت ان ازيح هذا البرنامج الملفق لتكون هي بحقيقتها لي وانا بحقيقتي لها. هكذا يكون تعاملي مع محيطي، فعالمي مكونهُ كلام، وعمقهُ تنظيم المعرفة. فالتلقي مُعضلة المرسل، كل ما تقعّرت اللغه، سوف ينقصها شحنة التوصيل، شحنة التقرب الى الاخر. فكلّ النصوص الذكية قامت على إحداث دهشة في اساس وعي قرائها. فرجولتي رُهنت تحت كذبة هذه اللعبة ألافتراضية المثيرة والمجهولة العواقب، وبتحولها العاصف..

** ** **

زوجتي جاءت الي ضاحكة وكأنها لا تتمالك نفسها، تودّ ان تفهمني شيئاً فصعب عليها ان تفلت من سلطة الضحك المستمر.

اخذتني من يدي وهي تشير الى حاسوبها الصغير، فقلت لها:

- انا انتظر ما تريدين افهامي؟

ولأنها لم تستطع ان تتوقف عن الضحك. حاولتْ هي ان تجعلني أَتمعّن في حاسوبها المفتوح، تفاجأتُ من هولِ ما رأيت!.. حيث عنواني الافتراضي كان مفتوحاً- عندها- على عناوينها ألافتراضية وثمة عناوين أخرى مفتوحة معي كلها تطلب مني صداقتها.

شعرتُ باني مكشوف الجانب، ومن المستحيل ان اخبئ نفسي؛ إلا ان اصارحها بمشاركتها ضحكتها الهادرة بعمق صادق.. بعد ان اوقعتني بفخاخِ لعبة برامجي الافتراضية لاستمالتي والسيطرة على أزمتي، لأنها ادركت بأنني قد أوغلت بالابتعاد عنها كثيراً. إذ كشفت لعبتي السمجة، وبرامجي اللعينة التي تخفيت وراءها.

ثم قالت بحزمٍ:

- أسامحك لو قبلت أن تأتي معي الى الطبيب ونُجري تحاليل تجاوزنا عقبة عدم الانجاب.

العقلُ المريض بجماله

بعد أن ضحكنا بعمق، قلت:

- هكذا هرهرتنا سنواتنا العجاف..

لكنه لم يعطني فرصة متجاهلا سؤالي عن أحواله الحالية، فبقي يتكلم عما اختاره هو من كلام، مواصلا:

- حسبما تعرف العلوم العصبية حققت تقدّما هائلا منذ مطلع عقد الثمانينات الماضي.. ولكن هناك مفارقة كبيرة يعرفها هذا الميدان وهي أن التقدم الكبير الذي جرى تحقيقه على صعيد معرفة أسرار الدماغ وآليات عمله لم يتواكب أبدا مع تقدّم مماثل على صعيد التخلّص من أمراض عقلية معروفة منذ عدة قرون.

كان يريد القول:

- أصغ إلي يا صاحبي ودعك من كل ما تريد..

فأنا التقيت به مصادفة من بعد فراق طويل، وبقيت اسأل نفسي ربما قد غيرته السنين.. إذ بقيت مصغيا إليه أتابع عيناه الحمراوتان وكأنهما تغوصان في عمق ما وتغرف إلي بالكلام المتوازن الذي يعطيني معلومة تلو الأخرى، ففي السابق عندما دخل في أول أزماته يومها قد كان انفصل عن زوجته و أولاده.. تصير يومها صامتا في صحبة أصحابه، ولم يكن يتكلم بموضوع متصل أبدا، بدا آنذاك الأمر عليه أشبه بأعراض مرض الذهان، فهو يصمت طويلا، وما يبدأ الكلام حتى يتكلم بأمر آخر لا يمت بصلة إلى أوله، فلم أتوقع منه ان

يفلت من تلك الأزمة التي عصفت به وجعلته إنسانا آخرا غير الذي اعرفه، كنا نعرف أشياء قليلة عما آلت إليه الأمور ولكن مقربيه قالوا : - امرأة حكمت عليه بالفراق عن زوجته ذات يوم.. ادعت أمام الناس بأنها مرضعته ومرضعة لزوجته، فحدث ما حدث..

إذ فارق زوجه ولا احد ينكر ما عليها من حضور، وعليه كزوج من سطوة.. كان هائما به، لكنهما افترقا للأمر ذاك، ولم أتابع التفاصيل، كنت أتعاطف معه لأنه إنسانٌ مبدعُ متفانّ مع أصدقائه وأهله، فمرّ بأزمة كبيرة لم يفصح لأحد عنها. كنت قلقا عليه أكثر مما اسمعه منه، يومها كان شارد الذهن لا يقدر على مواصله جملة واحدة على عكس ما اسمعه واراه اليوم... إذ بدت جمله مترابطة وغير متوترة.. لكن حركات رأسه يمينا ويسارا جعلتني أخاف عليه أكثر، قلت مع نفسي حتما سأعرف لاحقا ما حلّ به، خلال العشرين عاما التي أفرقت عنه.. أردت أن اسأله ليكشف اليوم لي عن اهتمامه الدقيق بتخصصي، كأنه يريد أن يفرض علي بأنه لا يقل اهتماما عن أي متخصص بهكذا الموضوع: (بالتأكيد أنت تعرف الباحث ومؤرخ العلوم الفرنسي (بيير هنري كاستل) قد كرّس كتابا لهذه المسألة اسمه (العقل المريض)، باحثا في الموضوع ذاته عبر نهج شيق)، فقلت:

- سبق لي أن قرأت له:

- (الدفاع وأشكال الجنون، والأفراد)؟..

نظر الي مستفهما كأنه قال بعينه لم أعرفك مهتما بهكذا أمر من قبل، لأنك حسب علمي قد درست في مادة الفيزياء.. فتداركت مردفا قبل ان ينطق:

- سنحت لي فرصة أخرى فاقتنصتها كي ادرس مادة أخرى..

- نعم عرفت ذلك لقد صادفني أكثر من صديق لينقلوا لي أخبارا طيبة عنك..

اخذ نفسا عميقا وواصل القول بارتياح:

- ذات مرة على إحدى صفحات الويب وجدت احد أبحاثك وأرسلت إليك مفندا ما كنت تطرح جملة بجملة ولكنك لم تلق لي بالاً، فقد حدثني عنك أكثر من صديق فأصبحت عازما على ان أراك ولم استطع.. بودي التحدث عن أبحاثك الكثيرة، كم أنا مهتم بما تطرح، وتستنتج.. كم أنا فخور بك..

رجوته في قراره نفسي أن لا يشعرني بالزهو أكثر وان يواصل حديثه في موضوع سيوصلني حتما إلى ما أريد

- (حدث تطوّر هائل جرى تحقيقه على صعيد معرفة توصيف الدماغ ودراسة آليات عمله، وتشريحه لتقييم فعالية العلاج في مجال الأمراض التي تصيبه. وأدى هذا التطور إلى تغيير كبير في المفاهيم النفسية التقليدية وإلى (تطبيع) استخدامها. فأصبح الحكم

على (الحالات العقلية) بأنها بوابات أساس علم الأحياء العصبي (البيولوجيا العصبية)، وعلم الإحصاء الطبي..

بقي مواصلا القول، كأنه لا يجرأ أن ينظر الى عمق عيني:

- وأي منهج لا يستعرض النظريات الكبرى السائدة حتى اليوم في مجال الأمراض العقلية يبقى قاصرا لأنه سيكون غير متواصل مع ما بداته كتب دراسة العقل الحديث.

أصغي إليه بانتباه وحرص، وهو يعي ما يقول على الرغم من محاولته برفع بؤبؤي عينه إلى أعلى من دون أن ينظر إلي، فيسبب لي إحساسا بعدم الارتياح، كأنه ليس هو من يتكلم؛ عيناه أحيانا تغوران عميقا وأنا لا اعرف لهما قرار، ولكن صوته ثابت القرار، يدل على ثقة عالية بالنفس، فبقيت تفاحة ادم، تصعد وتنزل بتوازن، وبقي يواصل لي القول:

- قرأت مرة عن منهجين يقول أحدهما إن الجنون هو نتيجة لخلل في آليات عمل الجهاز العصبي، ويرى الآخر أن الجنون هو نتاج لميزان قوى على صعيد السلطة ومقابل هذين المنهجين يتبنّى (طريقا ثالثا) لشرح أشكال الهذيان الحديثة والاكتئاب العصبي ولغز (المجرمين المجانين) وغير ذلك من ظواهر الأمراض العقلية.

فأردفت قائلا، كأني وجدت فسحة ما لأقول قولي:

- يرى (كاستل وضع مسائل فلسفة العقل على طاولة عمل المحللين النفسانيين).

قاطعني مواصلا:

- فما هو (عقلي) له مكوناته النظرية والعملية الناتجة عبر التوفيق والتداخل بين ما هو دماغي وبين ما هو اجتماعي لدى كل فرد.. بهذا المعنى يغدو من الخطأ القول أن (العقل) يعني (الدماغ) حصرا.. ومن الخطأ القول إن نشاطات العقل هي (فوق الواقع) وأنها منفصلة تماما عن الآليات العصبية- البيولوجية.

اخذ نفسا عميقا وانطلق قائلا:

- ونتيجة للتداخل بين ما هو دماغي وما هو اجتماعي تجتهد تحليلات هذا الكتاب للإحاطة بـ (طرفي السلسلة المتمثلة من جهة بالمحددات المتعقلة بالخلايا والمورثات ومن جهة أخرى بالعلاقات بين البشر).

أضاف بعد أن ابتلع ريقه، وكأنه يشكو من أعراض مرض السكري:

- انوي أن أكرس فصلا كاملا لمتابعة (النماذج الحيوانية) في دراسة سأكتبها ذات يوم متناولا أشكال الجنون، أي تلك التي يتم فيها الاستبعاد الكامل لمكوّن العلاقات مع الآخرين في المرض العقلي..

نظر بعمق إلى أعلى فروه راسي، وحاذر أن تلتقي أعيننا، ككل مرة. وكأنه يريد استدراك شيء ما، ثم واصل القول:

- مثل تلك المحاولة سوف ترمي إلى الكشف عن الأصول العضوية البحتة في بعض الأمراض العقلية البشرية.

بقي يتكلم ولاحظت آثار رذاذ تطاير من فيه على قميصه وتذكرت (ملاحظة هذا السياق تتمثّل الأعراض الرئيسية لهذه الحالة بعدم قدرة المصاب بها على منع نفسه من كيل السباب والشتائم (القبيحة) للآخرين، وبصورة لا إرادية)، اذ هو لم يكل شتيمة لأحد بل على العكس بقي متماسكا، قائلا وكأنه قرأ أفكاري على حين غرة:

- أن البعض يرون في هذا (العقل المنتج للشتائم، الشتّام) كيانا منفصلا عن صاحبه، والخلايا العصبية هي المريضة تحديدا و(كما لو أن الدماغ نفسه هو الذي يقوم بالشتيمة، وليس الإنسان صاحب ذلك الدماغ، فهذا الإنسان ليس هو الذي يوجه الشتائم إلى إنسان آخر). وهنا ينتمي الخلل العقلي إلى الأمراض ذات الأسباب المادية البحتة التي تعيد الاضطرابات العقلية إلى خلل آليات العمل العصبية، أي إلى خلل في الجهاز العصبي الذي قد تصل أسبابه إلى الجذور الأولى البعيدة لمورثات الأشخاص المعنيين فيه.

لا ادري أحسست بان لساني قد ثقل وأنا انظر إليه، أريد أن اعرف كيف يتواصل معي بأفكاره، دون أن يسمعني لحظة واحدة، ويريد أن يقول قوله، فحسب.

- وهذا ما يسميه (مجتمع الأفراد- الأدمغة).. معالجة الإنسان لدماغه من أجل إمكانية الاندماج في الحياة الاجتماعية)... مثل هذه العلاقات بين (أدمغة) وليس بين بشر يرى، أضاف:

- أنها تتحقق بالصيغة الأكثر شيوعا في عالم السياسة.

(أن الجنون يطرح إشكالية على العقل من خلال محاولة (نفسه) والاقتراب أكثر من الحالة الطبيعية، بمعنى البعيدة عن الفعل الثقافي من حيث دلالته الأصلية المتمثلة في تدخل الإنسان لتغيير طبيعة الوسط المحيط فيه. والبرهان الذي يجسده (العقل المريض) لا يطرح مسألة نظرية كبيرة فقط، ولكنه يطرح مسألة فعالية العلاج وأخلاقيته)، إن اعتبار الألم النفساني كمجرّد مظهر خارجي لخلل الجهاز العصبي، إنما يعني اختزال المجنون لدماغه فقط والنسيان، أو التناسي، الكامل الاستماع إلى (لغته).. بالمقابل لا تتم رؤية سوى (مناورات ذات علاقة بالسلطة) في مظاهر الجنون.. هل تعرف ما أراده (ميشيل فوكو)، وقبل أن أهمّ عليه بجواب قال متعجلا:

- ذاك باحث جميل ألا ينبغي عليك معرفته؟ لأنه صاحب معرفة عريضة وبحوث منطقية لا أظنك ستعرفه يوما مثلما أنا قد عرفته..

أحسست بأنه يريد إعلان تفوقه علي، و ربما سأرى منه ما لا يُحمد عقباه إن لم أعطه فرصة ليقول بها ما يريد..

- (يركز على القول إن المرضى بـ(عقلهم) يشكلون أحد ظواهر التراث الإنساني في كل العصور وهم قبل كل شيء (يفكّرون) ويحسّون ويتألّمون وبالتالي ينبغي محاولة فهمهم وفهم عالمهم).

تأكدت باني لن أوفق بمقاطعته، وسيبقى يُسمعني ما يريده دون أن يسمع مني..

الحلمُ العظيم

بعد ان غادرني الى بيته صديقي "سالم قنديله"، والذي اسميه المجنون بحلم الرواية. سألت نفسي ماذا يمكنني فعله في نهار ثقيل الهواء، يركد في قاع الصدر، ويمنع عنه الأوكسجين النقي؛ غير الاستغراق بالقراءة والاستمتاع بكتاب عساه أن يكون جيداً، فالقراءة تجعل مني اعيش حياتي الافتراضية بالحلم الذي يفرضه الكتاب، ومتهرباً بالتخيّلِ من حياتي الواقعية..

اذ تركني منفعلاً، شبه محبطاً لأني لم احسن له اختيار كتاب يقرأه، عله ينفعه في وحدته، ويبدد به وحشة البيت الفارغ من الأهل والاحبة كما يقول: فكلما وقعت بين يدي نسخة من رواية ما، يتحرك عنها السؤال بحيوية، ان كانت مغامرتها ناجحة، او فاشلة، وما هي المقومات التي تتوفر في الرواية، لتجعلني استطيع الحكم على اساسها بانها رواية ناجحة، او فاشلة. سرعان ما اعطيها من وقتي، واهتمامي، وأختار لها عزلة قصية عن هذا العالم، وكأني الطائر الذي حان موسم هجرته، ليلتقي في مكانه الجديد ما يفتقده، وساعة تلك اكون متخلياً عن فنجان قهوة ينتشلني من خمول هذا العالم المليء بالاسى، ومن ركود الغمّ الذي يقطع عن مروحتي تيار الكهرباء، فتشح حركة الهواء، ويصير الفضاء خانقاً الى درجة التذمر. رحتُ اجلس هادئاً واشرع في تتبع الحروف، مثل كل مرة، ومتحدياً لهذه الازمنة الرخوة، والتي تستنفد مني أغلى خلايا جسدي الذي وصل

الى خمسنياته بكآبة القراءة، والبحث عن متعة سرية علها تحققها لي حرية الرواية. اتلهف لقراءتها، متناسياً متطلبات مهمة حولي، تعودت تأجيلها الى ما بعد استقرار حوضنا المتوسط، وخيباته السياسية التي حطت على رؤوسنا واكتسحتنا بهزائم متواصلة. اشرع مبحراً تحضرني الاسئلة الحقة عن الرواية الحقة. ولن تشفع لها انها قد صدرت عن دار نشر مرموقة، أو كتب فيها، او حولها عشرات الدراسات التفاعلية. أو نالت عشرات الجوائز، فالمقياس الاول لنجاح اية رواية هو التشويق. سرعان ما اشعر بان الكاتب قد فترت همته، وراح يعبأ بما هو محدود من خياله الضيق، خاصة ان كانت اصداراً جديداً، لأحد كتابنا المحليين، فمن الصعب عليه ان يبقيني معه، مالم يتواصل ويأخذني بهمّة عالية الى متن عمله، ويعطني جديده الذي يستحق مني الوقت، من بعد أن وقع أغلب الروائيون العراقيون من جيل الرواد في تجارب روائية فاشلة "برغم تلفيقات بعض المحاولات النقدية التي تعاطفت مع الاسماء دون تَبَحُرْ في الاعمال بموضوعية". اذ تهيّج بي المواجع ويشخص امامي السرّ العظيم مجابهاً ماذا أعرف أنا القارئ والكاتب عن سمات وخصائص الرواية الحقّة؟ وما هي خصائص انساق الروايات العظيمة، تلك التي تجعلني لا أنساها، وتبقى عالقة في الذهن، واغلب تلك الروايات الناجحة أرغب في معاودة قراءتها بغية الاستزادة والتعلم منها. فمن الجائز ان تختلف اذواق المآكل والملبس، ولكن لن يختلف معي في صفات الرواية الفنية الجيدة. حيثُ يبقى الحلم الروائي العظيم يُطارد مريديه، ابداً،

وعلى حدّ سواء في الانجاز الكتابي الشخصي، او البحثي على كافة المستويات من القراء او الكتاب، فالكاتب يحلم بتحقيقه، والقارئ يحلم بمتعته، ولكن حلم القراءة والاستمتاع يبقى عصيا عن التحقيق، كون نظريات الادب متفاوتة الشروط، وتبقى السِمة الاولى هي عدم مقدرة الروائي في سرده على تقديم مادة مقنعة، حقيقة، تحقق تعاطفاً جوهرياً لدى عموم القراء. يقول الناقد "سعيد يقطين": - "تتطور نظريات السرد باستمرار، وغدا شبه مستحيل أن يواكب المرء هذه الاجتهادات المتعددة والمتراكمة"..

حيث يبقى السؤال يحفر بعمق، ويتحول الى هاجس مريب، لكوني أفتش عن الاستمتاع في كل رواية انتخبتها من بين مجموعة الكتب التي اشتريتها من مالي الخاص. بحثاً عن الاضافة المرجوة، واغلبها كانت تحمل عناويناً مثيرة، كي أشرع في قراءتها. غالباً ما تخيب ظني الرواية عندما لا أجد فيها ضالتي، وتجعلني نادماً عن ما بددته من مال في شراء نسخة منها. حيث تفشل الرواية بغياب مدارات الأثارة، فالرواية "موقف انساني حقيقي يكشف عن وجهة نظر"، وكل كتابة تساير الرقيب، تتملق السلطة، كتابة منهزمة تبغي تسطيح العقل، تثيرني الكتابة التي ترفض، و لا تنقصها الإحالة الرمزية، والرمز كما يفسره "إيريك فروم": "شيء يمثل شيئاً آخر".. فالرواية الحقّة "تصر على أن أسطرة الوقائع وليس إقصاء الواقعي والعقلاني، فالرواية تراهن على تعقيل الواقعي، ما دام زمنها مفتوحاً وليس

مغلقاً، وما دامت أسئلتها قائمة غير منتهية، وما دام عالمها متعدداً وليس واحداً".

قد انتبه اني بحاجة الى تفريغ مثانتي وتبديد الالم، من بعد مواصلة القراءة، واحيانا اناوبها في تحضير كوب شاي لنفسي، متنفسا بعمق لأعاود المواصلة.. (الحال متفرد مع رواية "الفلانية" للأستاذ "فلان الفلاني"، من بعد ان صارت بين يدي وصرت اقرأها، فما عدت اتوقع بانه سوف يقدم لي حتى نهايتها شيئاً جديدا عليه، كما خبرته من اعماله السابقة، وتمنيت ان افعل معها مثلما فعلت مع بعض الروايات الفاشلة التي رميت بها من شباك غرفتي المطلة على حاوية جمع النفايات، ولكني تريثت قليلا، ولابقي اتابع نتيجة بطله المحوري الذي سماه كاتب القصص والروايات)..

كأنها لم تزد عن كونها قدمت موضوعة اجترار سيرة ذاتية خالية اثارة تنفرد بمضمونها الانساني لتدهشني كقارئ، مليئة بالأحلام التي اغلبها انعكاس عن مكبوتات جنسية "تخص مؤلفها". حيث لم يستطع سردها بطريقة مبررة، بدت مقحمة وعجز ان يميزها عن ما كتبه في السابق. ولم يعبر تجاربه الكتابية، حيث ما زال بذهن محدود، معاود تسمية جديدة دون ان يحملها مضمون جديد، فتكرر فشلها عندما خليت من "الحلم العظيم".. كما يذكر "أمبرتو إيكو": يمكنني القول إن ثمة وفرةً من الروايات المكرسةِ للحبّ، وحان الوقتُ لشرحِ الكراهية،

التي هي شعورٌ منتشرٌ أكثر من الحب (وإلا ما كان هناكَ حروبٌ أو جرائم أو سلوكٌ عنصري)..

اصبحتُ اتململ قليلاً، واغير في جلستي قليلاً، وانتبه الى الاصوات الاتية من الخارج، واعود الى الاسطر الممتدة امامي، محاولاً التركيز والتواصل معها رغماً عن كل شيء.. معاوداً التفكير في طبيعة ذائقة صديقي "سالم قنديلة"، فكل مرة يزورني ليبادلني بعض ما يحمل معه من كتب، قد تعود ان يستعيرها من اغلب اصدقائه، فقد انتخبهم من المثقفين عشاق المكتبات. كانوا في الغالب يثقون بذائقته، فينتقون له كتباً يرغبون مشاركتهم الرأي. كان متوقد الذاكرة، وقد حمل في ذهنه ارشيفاً يحوي اهم الكتب الصادرة خلال اكثر من ثلاثين عاماً.. يجيد المقارنة بين الأعمال الروائية، الفاشلة، والناجحة على حدّ سواء، يذكر احياناً احداثاً دقيقة التفصيل بينه وبين الاخرين، وبقي عفياً كماء ينزل من كوز. تعودت عليه ان يزورني، وما ان يدخل غرفة الكتب حتى يجلس القرفصاء، رافضاً الجلوس مثلما يرغب مضيفيه. كأنما يبحر في مركب منتظر الوصول. اراه يجلس للقراءة ساعات طويلة، بلا ملل، واحيانا لا يتكلم مع مضيفه، الى درجة غيابه، وكانه كائن منتظم الانفاس، لا يسمع منه سوى حفيف تقليب الصفحات، ولا يريد ان يرفع عينه عن السطور، ولم يشك لي يوماً من آلام الرقبة حيث يبقى ساعات متواصلة، يغترف من كتاب مفتوح، وكانه وجد فيه ما يتمنى، مستمعاً بدون انقطاع..

اتعجب منه احياناً كلما اساله ان كان راغبا في قدح ماء او شاي او فنجان قهوة، يرفض، وان وضعت شيء قربه، يهمله نهائياً، وكأني لم أضع له شيئاً.

جاءت بعض الاعمال لأسماء معروفة لنا، وكتب عنهم مجموعة من النقاد، ولكننا لم نجد الاشياء الموضوعية التي وجدها النقاد مثلما لا نجد فيها مثلما وجدوا. "النقد الروائي يستند في دراسته على الاسماء المعروفة، ولولا تلك لما وجد ضالته". حيث وقعنا كقراء في فخّ النقد الذي لا يبحر الا في نتاج تلك الاسماء.. بالرغم من انها تبتعد عن خبايا المجتمع الاجتماعية والسياسية خصوصاً "اليوم" والرمزية، والتباين والصراع والتبعية العمياء، وبالتالي خنق الحريات... كأنما يعاني النقاد ايضاً من سطوة الرقيب، الوهم، فحضوره شاخص كالجبل على اكتاف بعضهم. اعبّ الى جوفي قدح ماء، من بعد الحاجة الى اطفاء شبه سعير في جوفي، فالماء غير البارد، لا يمكنه الارواء.

رحت اكمل؛ بعض الكتاب وقع ضحية اعجابه في الواقعية السحرية لرواية "امريكا اللاتينية"، ولم يفلت من سطوتها " تقليدا واستنساخاً" حيث اكد بانه لم يرتق الى غايته المرجوة من بعد ان انفضّ منه قراءه الذين اطلعوا على اغلب النماذج من الروايات الاجنبية للأمم الاخرى.. فـ"العمل الفني نتيجة فريدة لمزاج فريد" كما يقول "اوسكار وايلد"، فيبقى هم اسمه القاعدة الفنية، وهي من مقاييس

الجمال الفني، وهذه تكاد تكون ثابته وتزحزح القناعات في المادة المقدمة عبر كتابة الرواية فكلما تخلخلت تلك الثوابت وخاصة التي لا تترك انطباعا جيدا بان الكاتب الروائي استطاع فيه ان يقنعنا ويثبت لنا قناعات جديدة على مستوى المضمون.. حيث تحضرني صورة بديعة كتبها "شتاينبك" عن امرأة يموت عنها رضيعها، ويدنو منها رجلا ً كهلاً ليشرب حليب صدرها متحدياً موته من الجوع... كبيرة، غير اعتيادية في نظر القارئ، ولا يمكنه ان يعيبه القارئ عليها، لأنها ليست من المألوف اليومي المباشر، والسطحي. ثمة موضوعات، تثبت في ذهن القارئ، كونها تضيف اليه، فلا يمتعض منها. تذكرت لحظتها قولاً مهماً للروائي "ميلان كونديرا": (الواقع أن كافة الثيمات الوجودية الكبرى التي يحللها "هيدغر" في كتابه "الكينونة والزمان" معتبراً أن الفلسفة الأوربية السابقة كلها قد أهملتها، إنما تم الكشف عنها، بيانها، وإضاءتها، بواسطة "أربعة قرون من إعادة التجسيد الأوربي للرواية"... لقد اكتشفت الرواية، واحدة بعد أخرى، بطريقتها الخاصة، وبمنطقها الخاص، مختلف جوانب الوجود: تساءلت مع معاصري "سرفانتس" عما هي المغامرة، وبدأت مع "ريتشارد" في فحص "ما يدور في الداخل"، وفي الكشف عن الحياة السرية للمشاعر، واكتشفت مع "بلزاك" تجذر الإنسان في التاريخ، واكتشفت مع "فلوبير" أرض الحياة اليومية، وعكفت مع "تولستوي" على تدخل اللاعقلاني في القرارات وفي السلوك البشري: إنها تستقصي الزمن: اللحظة الماضية التي لا يمكن

القبض عليها مع "مارسيل بروست"، واللحظة الحاضرة التي لا يمكن القبض عليها مع "جيمس جويس"، وتستجوب مع "توماس مان" دور الأساطير التي تهدي، والآتية من أعماق الزمن... حيث كل الظروف التاريخية اعالجها باقتصاد شديد)..

فالرواية ليست معنية بإعادة كتابة السيرة الذاتية، وفق ما حدثت، وتوظيفها في جملة اعمال، فالكاتب الذي يعيد انتاج سيرته الذاتية بطريقة غير مبهرة يدخل في متاهة وهم الرواية. فالرواية ليست غايتها تقديم كلام ساذج وتسويد اسطر باهتة لأجل ان يكتب على غلافها رواية، تكون رواية وهمية.

ان وهم الرواية يكشف لنا كاتبها الذي لم يقرأ بحياته رواية واحدة بصورة صحيحة، ولم يستفد من اية رواية حقة كتبها المئات من العظماء الرواية، ولم تصل الى يديه رواية واحدة يتعلم منها بصورة جيدة. (غالبا ما يستقي الأدب مادّته من التاريخ، بوصفه منهلا من المناهل الهامة الزاخرة بالشخصيات والوقائع والصراعات، خصوصا في الحقب التي شهدت هزات وتحولات عميقة، ولكنه لا يغترف تلك المادة بعلاتها، بل يعيد تشكيلها وفق رؤية مخصوصة)، فالذاكرة قد تكون المحكيات الشفوية عن الوقائع التاريخية، أو الوثائق الراصدة لدقائق وتفاصيل اجتماعية تاريخية، أو كتب المؤرخين...

قبل ذلك اسأل ما الرواية إن لم تكن فيها شخصيات استطاع كاتب الرواية ان يكسيها لحماً ودماً، حتى وان كانت من الخيال،

فمشروعيتها في حضورها المقنع على صفحات الكتابة، تلك الشخصيات يستقدمها الكاتب المجيد من ذهنه، وغالباً ما يلبسها اثوابا غير أثوابه، ويؤكلها اكلا غير اكله. يرسمها بصورة غير صورته، يستقدمها عند حاجته ملحة، وتكون حاضرة في روايته، ولا يمكن عبورها.

لا اعلم كيف احتجت الى صديقي "سالم قنديلة" في تلك الساعة.. من بعد ان تعودت ان اسمعه اسئلتي المفترض ان اوجهها الى مؤلف الرواية. تمنيته ان يكون جالسا معي في الغرفة ولم يغادرني، اردت ان اقرا على مسامعه مقطعا من الرواية الرديئة التي اوشكت ان افارقها دون ندم، حيث ابقيت النسخة مفتوحة بين يدي، متفكراً في كاتبها المشهور بين اقرانه، الذي ربما تجاوز الستين من عمره، متمنياً ان اساله: خصوصاً عن ما كتبه في الصفحة ١٦٣ (بيسي كولا، لا يوجد لدي بيبسي كولا.. سفن آب افضل بل ولذيذ مع الفلافل.. اذن هات لنا ثلاث زجاجات من سفن آب باردة).. "لم بقيت تكتب بلغة الستينيات من القرن الماضي، وتنسى بانك في عام ٢٠٠٩ سنة صدور الرواية.. كأنما نفس اللغة، ونفس التوجه، ولم تتطور اغلب تطلعاتك.. مازال يشغلك الجنس وكأنك لا تعرف كتابة دونها.. هل كنت من اصحاب أهل الكهف"؟.. "ما الذي دعاك الى البقاء في نفس الاجواء، ونفس الأمكنة"؟.. "هل كتابتك قديمة الى هذا الحدّ وبقيت حجيز ذلك الزمان والمكان"؟.

الامكنة كلها كلما تضيق تسمى مكاناً واحدا، اسمه مكان وحيد عاش فيه الروائي ولم يرسمه بطريقة مقنعة. الرواية المقنعة لن تكون بسرد هذيانات واحلام مشوهة، واعادة كتابة جمل قد استقرت في ذهن الكاتب ليعيد انتاجها بصورة ايضا غير مقنعة. فالكاتب الذي يتجنب الوقوع في مغامرة روائية فاشلة عليه ان يعي تصاعد الأحداث، وتصارع الشخصيات ضمن محدد زمني، ومحدد مكاني، وان لا يعتمد على بطل واحد لتدور الأحداث حوله. والراوي عليه ان يكشف جديده بدقة عن مواقف اجتماعية، وغرامية، وفكرية، وسياسية، وغيرها، فالرواية متسعة الزمان والمكان، برغم تعدد الأحداث، والشخصيات.

من المفترض ان تكون على علاقة واضحة في المكان المفترض. والمكان المفترض يجب ان يكون له عمق حقيقي وامتداد ليكون ساحة عرض تتحرك عليها الشخصيات. الرواية التي تَتَشَبح فيها الشخصيات، واغلبها تكون صاحبة وجه واحد قريب الشبه من الكاتب، وكانه تشارك في سيرة واحدة همها اعادة تاريخ الكاتب بطريقة تعويضية عما فات..

تنفست بعمق واردت القول: - "جنس الرواية كائن حي يتفاعل مع قارئه ولن يموت بسهولة".. فكلما تحددت ملامح الشخصيات ورسمت بدقة، بمثابة هويتها الروائية الحية الواضحة، بحكم التخيل، الذي "يحيل الذاكرة من التعبير عن الماضي إلى الحاضر".. لأن

الأساس ليس كتابة التاريخ، وإنما كتابة رواية تحوي وقائع التاريخ. الا الرواية التي تبعث على الملل تلك التي تكتب فصولها وكأنها ليست فصول رواية متواصلة، بل قصصا قصيرة، لم تمت صلة ببعضها الا في عمق ذهن مؤلفها وحده، فهو الوحيد القادر على تسمية تلك العلاقة، فالتاريخ الذي شهدناه كمدونين يجب ان يكتب متواصلاً، ولا يمكن اعتباره تاريخا كتبه شاهده، ما لم يكتبه متواصلاً ممتداً، كما يقول "ماركس"، ومقنعا كانه كيان واحد يشغل حيزاً في الفضاء المطلق.. "قول التاريخي؛ إن تقوله روائياً وليس تاريخياً، وبين الروائي والتاريخي مسافة تحددها جمالية الكتابة الروائية، بحكم كونها كتابة إيحاء لا كتابة تقرير فاشل"...

وجدتني اترك نسخة الرواية التي بين يدي، جانباً، ومواصلا غفوتي، متمنياً ان اكمل حلمي العظيم، "وأنا اسأل نفسي كيف تسنى للمؤلف ان يحظى ذات يوم ان يكون خبيراً في شان الرواية، وكم بدد من روايات قد عرضت عليه فقمعتها خبرته". تمنيت ان أنال من اسم بطل روايته "كاتب الروايات والقصص" اذ لا يقيم فرقاً بين الرواية والقصة بدليل نتاجه.

اكتشفتُ باني قد غفوت الى اكثر من ساعة، بينما انا جالس على الاريكة، وقد انتبهت ان "سالم قنديلة" لم يغادرني الى بيته، كما كنت اعتقد متوهماً. بل بقي منكبّا على كتابه طول فترة غفوتي الطويلة..

- "تبقى ايها المجنون بحلم الرواية تبحث عن رواية مثالية، ولن تجد"!!.

همهم بكلمات متسارعة، قائلاً: (اذا فقدت قيمة ما محتواها الثابت، ما الذي يتبقى منها؟ مجرد شكل فارغ، أمر غير مهم)، كنت أدرك في قرارتي بانه يرمي الى ان هناك كتابة جيدة، وكتابة رديئة، والعالم دونهما لن يتوازن.. ثم عدل من وضع نظارته الطبية وهو يكمل:- (اتفق معك بأن "الرواية العظيمة هي التي فيها قصة حبّ عظيمة" الرواية العظيمة لن يكتبها الا من عشقها وعاش معها قصة حبّ عظيمة).

Saturday, May 18, 2013

حَلَزونات كنْشَتْ وكوابيسه

بينما كنتُ مستغرقاً في الاستمتاعِ إلى أغنيةٍ ايطالية شهيرةٍ أُسمهاTime to say "goodbye"، من أداء الثنائي الرائع "Andrea Bocelli"، و"Sarah Brightman"، وأثناء قيادة مركبتي في طريقي إلى العمل في مدينة "غوته" التي تبعد باتجاه الشرق عن مدينة سكني.. بأكثر من تسعين ميل، حيث الارض الجرداء خلت من لوحات العشب الأخضر، والسماء شمسها ساطعة، بينما الهواء الحار يبعث على الاختناق..

لا اعرف كيف سيطر علي النعاس، فاضطرت الى تخفيف السرعة والوقوف على جانب الطريق، كي أبلل وجهي ببعض الماء الذي احمله معي في قنينة بلاستكية، لعلي اتخلص من سلطان النوم، الذي اثقل لي جفنيّ في عزّ النهار. غسلت وجهي بعد ان غمرني هواء جاف. مددت بصري الى يميني تارة والى يساري فلم الحظ اية سيارة قادمة او ذاهبة. السماء ملتقية بخط الافق، حيث اختفت الأشجار العالية التي كانت تحيط بالمدن، وصارت حطباً استنفده الناس عندما شح عنها الوقود. كنت لحظتها متحدّياً للخوف الذي صار هاجساً طبيعياً ومتداخلاً بين مفاصل ايامنا، فبقيتُ اتعلق في فضاء الموسيقى الذي كان يغمرني بتعويض ساحر لكل ما افتقده.. حيث تمتاز الأغنية بتمازج صويتهما بشجن واحد، وهما يتعاهدان على أن الوقت القادم هو الكفيل بنسيان الم فراقهما. كأن الأغنية تحمل معاني مليئة بالسحر يظهره اللحن البديع، المتوافق ما بين مساحات صوتيهما، وكأنهما يلمان حزن العالم في نفحة مريرة، وبليغة. الاغنية

تغطيها فرقة كونشيرتو بتجاذب وتوافق وتأثير. كان الصوت الثنائي خبيراً بتوصيل الإحساس عبر مخارج الحروف. عهدتهما متقنان للأداء بحساب علم الموسيقى والفيزياء..

كان ذلك اليوم يوماً مشمساً من أيام شهر "آب" الملتهب. بعد ان أوقفتني نقطة سيطرة على الطريق العام، وطلب مني أحد الجنود أن يركب معي ليصل الى المفرق القادم، فرأيت أن آخذه معي، مرغماً. رحتُ منطلقاً في تكملة الطريق، ليس خوفاً من عواقب عدم الصحبة. لكن خوفاً من عدم الامتثال لرغبة العسكري. لان ذلك قد يعرضني و المركبة برشق وابل من الرصاص، وما شابه. أو ادعاء ما يشاؤون من تهم الجرائم الجاهزة. كان خوفي متصل بعدم الوثوق به، فكل ما حولي طوع تفكيره. اذ لديه من الاوامر الصارمة ان يفعل ما يشاء، بمن يشاء. خاصة بالذين لا يشفع لهم احد من المسؤولين. اذ يركبه القانون، ويكون مجرماً بما لديهم من ملفات جرائم لم يعترف بها أحد. وطوال الوقت سيبقى يرعبني طوال الطريق، لأنه محمل بكل انواع الاسلحة، وبإمكانه ان اقتيادي حيث يريد، تحت سلاحه. فقلت "مكيف الهواء عاطل"، فهزّ راسه موافقاً. فتعطل مكيّف الهواء الداخلي، ربما يجعله يتراجع بقناعة عن رفقتي. فالهواء الجاف سوف يهاجمنا سويا ويحط علينا الهواء الثقيل من النافذة، ويزيح بجفافه الطراوة التي تبعثها الموسيقى في النفس.

في أول الامر بدى مرافقي غير مهتماً، وتركني دون علم منه ان ادقق في ملامح وجهه، عبر المرآة، فعرقه سال من جبهته، وصار رائحة التعرق تفوح من ملابسه الثقيلة. كأنما صار مغطى بقطعة غمرها اللون الكابي. ناولته منديلاً ورقياً ليمسح بها وجهه المثقل بما يخيم بقوة فوق حرارة الجو الخانقة، وكان اشعة الشمس تخفق الهواء خفقاً قوياً ليحل في النفس نكوصاً، يحطُّ فوق الانكسارات، ويضيف انكسارا جديداً. كنت اتوجس منه ما دام صامتاً، فالكلام يكشف ساحة وجهه، المتجهم. فبدأ بوقاحة، يسألني: كانه (يحاول استفزازي، واقتحام صمتي).. "من اين انت؟ وماذا تعمل؟ هل انت مُدرس في مدرسة"؟.

طريقة السؤال المباغتة، رعبتني، فاضطرني للكذب، فكرت مع نفسي "سايكولوجيا يبحث عن ضحية تليق بانتقامه، طبيعة اولئك الفاشلين في الدراسة".. اكتفيت بالنفي: اللعبة التي كان يلعبها "كنشت[٦]" تتناوب على جميع الاحتمالات، كرةُ الموسيقى التي نزلت مثل كرة النار الى اعماقي قد شرحها "هيرمان هيسه" في احدى العابه الزجاجية، وربما تتصادم مع بعضها البعض لتحقق وتيرة جديدة على من التحدي..

قدمتُ اليه قنينة ماء، نظر اليها بارتياب، واخذها مني دون ان يتأكد من ان غطائها محكم، ويمكن ان يضع له، شيئاً ساماً، أو

[٦] البطل المحوري في رواية لعبة الكريات الزجاجية للألماني "هيرمان هيسة"...

مخدراً مع الماء الصالح للشرب. وضعها جانباً، بعد ان زفرّ، وتجاهلت ما خطر بباله. كان يرتدي سترة واقية ضد الرصاص، ويحتضن "كلاشن"، لم يبعد اصبعه عن زنادها. بقيتُ احاول التشاغل بالنظر الى الطريق، الفارغ.

كان الشارع الرئيس يشبه الى حدّ ما طريقاً فرعياً مهملاً كتلك التي يعبدها الاغنياء لأنها تمرّ بمزارعهم الغناء.. تشبه طريقاً مقتطعاً من صحراء لا اعرف اسمها. بعد أن ساءَه اندماجي مع جداول الأنغام الباردة التي كانت تنزل عليّ من الأغنية التي كنت متواصلا معها، فأراد إفسادها من بعد أن عهدني متفاعلا معها إلى ابعد حدّ، كأني لا اعبأ بوجوده..

- "لِمَ لا تسمع إلى الحلزونيات بدلاً عن هذه الأغنية"؟..

اثنيت قليلاً، محاولاً تخفيض الصوت قليلاً، ورحت قائلاً:

- "هل تقصد تلك الاغاني من الحلزونيات الحربية التي ذكرها "الذهبي الأواني" في كتاب التراثي الكبير، الصادر عن مجمع الفرسان في سنة الميلاد الاولى، وقد ترجمهُ الكاهن عباد الله الروحاني بلغته الساحرة الى "كتاب البكائيات"، والذي يشتمل البكاء وانواعه، خاصة الذي يجيش الجيوش، ونبش النبوش على يد الطاغية "بوش"، في "مجمل الغواية والإغراء، من فصل الكذب والامراء"، وفي "محمل اعلان ما لا ينبغي اعلانه"، فما لا يليق في اللفظ، قد يليق في اخفاء النية"..

كلامُ المجانين، غالباً ما يفعل فعله في الجهلاء، كالسحر، ففعل فعله، وجعله يتحرك متوجهاً اليّ بكل حواسه، متصنعاً الاصغاء التام. حيث دارت عيني في الفضاء الضيق، بعد ان تماسكت جيداً، قبل الضحك، وقبل ان اضيف اليه جديد. كأني اردت ان القنهُ درساً في حبّ الموسيقى، "شوبان"، باخ" ، بتهوفن"، "روسيني". ولأني رأيت فيه بلادة، لن تذهب به الى ابعد من أرنبة انفه. "بعد ان افتعل الفهم"!، فكشف لي عن عمق مُسطح، بكل ما فيه، فرأس الخاوية ليس فيها ما وراء السؤال، لم يهمه البحث عن التعارض الفكري، والاختلاف في ايدلوجية حوضنا الاقليمي العظيم. اغلب سكان المنطقة التي نحن نسير ضمنها، قد شهدت حرباً طائفية طاحنة، راح ضحيتها عشرات الالاف من مختلف الطوائف.. اذ تفنن القتلة بالتمثيل بضحاياهم، وتركوا جثثاً بانت عليها اثار صنوف التعذيب، التي لم تخطر على بال. تلك الافعال تم تصويرها بكاميرات الموبايل، ونشروها لينشروا معها رعباً قاهراً جعل الرجال تلزم البيوت، وتمترس وراء النساء، صار كل رجل خارج من بيته مفقود، وكل عائد اليه مولود. تعطلت مصالح الناس وصارت الطرق العامة مهجورة، يجول فيها الموت الزؤام. بقيت ايامها روائح الجثث المتفسخة، تملأ الأجواء، حيث جفت جثث المصروعين تحت اشعة الشمس، من بعد أن بقيت متروكة على المزابل، امعاناً بالإهانة والاذلال. واستخفافاً بإنسانية الأنسان، ابن البلد. فأغلب تلك الفصائل المسلحة التي زرعت الموت الطائفي بدل زرع حقول القمح، حيث

جالت البلاد شبراً شبراً، وفرضت قوانينها العرفية الصارمة مثل ما تريد، وظلمت بها العباد، ونهبت الاموال وهدرت الاعراض باسم الهوية. اسست الى جريمة قامت باسم من يرتدي لباساً حكومياً، صنعت مليشيات، مازالت تحت وصاية القانون. ولائهم ليس لعلم الوطن. فلا يؤتمنوا. ولا يكشفوا عن وجهم، الا عند العواقب الوخيمة..

اخترت مجاراته، بغباء اقوى من حزننا المتواصل بالخيبات..

- "هل تفهم الإنكليزية؟"، فأجاب:

- "ليتني اكملت الدراسة".. (اخبرني ان والده استشهد في الحرب الاقليمية الأولى، وتركته الظروف تحت وصاية زوج أم يطلب منه الاستمرار في العمل على حساب الدراسة، وبقي يعمل في فرن خبز، ولم يتسنَّ له... الى اخر القصة)..

في ذهني بقيت تدور الموسيقى، وكادت أن تطغي على حفيف الهواء الذي يدخل من النافذة، مع ايقاع الاغنية المتصاعدة، وكأني اخلص الاصغاء الى محدثي. اغرق اكثر مع النغمات التي تهدر. كرات "هيرمان هيسة" تصطفق ببعضها، وتشغلني عن المواصلة، والاندماج في الحوار. حيث كنت ارى المسافات الجرداء مليئة بالعمران، تتصاعد عالياً مع تصاعد نغمات الموسيقى، كنت ارى المدن الحديثة مليئة بالبشر، يجوبون الاسواق. كأنما الاضواء تتراقص مع ابعاد الخيال، وتكون مدناً متداخلة في صور رأيتها. مدن

متراصة بالحضارة، تدفع هذا الخراب المدمر الذي في الاعماق. تدفعه بقوة، لينزاح ويكشف عن الوان "قوس قزح" تتحلى بها هذه المساحات من الارض بنايات شاهقة. يسكنها اناس ويتخرجون من جامعات مُبهرة، برغبة ان يزيحوا هذا الركام المتراكم في الوجوه، والعقول. التعلم مفتاح لكل المدن المعرفية، بقيت الموسيقى الناهضة من اركان تلك المساحات تتقدم نحوي، وكأنها تطير بنا فوق الغيوم، نعبر تلك المطبات المحفورة في الشارع، ونطير فوقها..

اردتُ ان ابعد عن ذهني كابوس ليلة أمس. حيث لم اكن اعرف اين كنت، ولكن في مكان كان كالخيمة، وكان يقف عندها كلب لي اسمه "كنشت"، وكنت قد سمعت نباحه، ونهضت لأرى القادم، اذ جاء احد لم اتبين ملامحه، وهو ايضاً يستصحب معه كلباً، وقد نبح كلبي بقوة على كلبه، وحاولت اسكاته، الا ان الكلب القادم مع صاحبه، فاجاني، اذ هجم على كلبي، وابتلعه كما تبتلع الحية عصفوراً بالكامل، ومضي ينفض نفسه، متبختراً، وجلس امامي كانه يتباهى بانه يستطيع فعل المزيد.. جعلني مرعوباً ، ومنكمشاً لا اريد النظر اليه، بعد ذلك جاء شقيقي، ومسح على ظهر الكلب، وكأن فروة الكلب فيها جيب، كالذي اراه في بعض الملابس الجلدية.. لحظتها صار عندي احساس بان ذلك الكابوس يكاد ان يتحقق، وكأن هذا اللقاء بداية لما سيحدث لي. لكني تشاغلت بالنظر الى الطريق، متظاهراً بالشجاعة. ثم قلت:

- "هذه الاغنية الافضل ما سمعت في حياتي"!!.

كمن ارتعش من وجل اصابه:

- "سبحان الله.. كأني افهم هذه اللغة"!.. فاجأته:

- "كيف تفهمها بالله عليك"؟، ارتبك قليلا لكنه مضي في جوابه دون تلكأ:

- "أكاد اشعر بهذه ألاه الحلزونية.. كأنها تقول يا حبيبي ومولاي يا سيد الحُزانى والمساكين يا محرر العبيد"، فقلت وبالكاد اوشكت السيطرة على مخارج كلماتي، كاتماً ضحكتي.. "وما أدراك؟... انه يقول ذلك"؟..

"مظاهر الحزن البشري واحدة عندما يقول الحزن كلمته؛ تجتمع ملائكة الأرض كلها لتنقلها من القلب الى العين، ثم يأتي بكاء البشر غزيراً، فيغتسل البشر من أخطاءهم، وآثامهم".. استنادا إلى السطر الرابع، الصفحة الرابعة، من كتاب "الأَفاق في أحزان حوض النفاق"، الطبعة الرابعة المزيدة والمنقحة، الصادرة عن دار "الواق واق". عام ٢٠١٢م.

ما ان انتهيت من قولي حتى أجهش ببكاء تمثيلي وأرادني أن أشاركه نوبته المفتعلة، ولكني لم استطع إلا أن اكتمَّ ضحكة أوشكت أن تنفجر، فقلت له: - "هل انت من الذين يرفعون شعار (أسابقك في

إظهار حزني، معلناً ولائي التام، ولا يعني الا كتفي أعلى كتفك، في عشق الدراهم)"..

- " هل انت عالم؟"..

لعنةُ بطل الأبطال الهمام الذي مات شهيداً مع عشيقته في حفرة تحت الأرض، من بعد ان دفنتهما طائرات القوى المتحالفة، بالقصف المتواصل بلا رحمة.. "تظاهر جمعي بحبّ "الدكتاتور" الأول قائد الجيوش العظمى" كنا نصفق كلما نسمع اسمه، وبتنا نصفق فوق تصفيق المصفقين مخافة الصاحب. فيعلو ولائه على ولائك، بوشاية"..

مدّ اصابعه الى جهاز التسجيل، ورفع الصوت، ليوهمني بانه استساغ الاغنية.. "يكتبون تقاريرهم إلى "الوريث الذي غير الراية المعقوفة إلى راية ملفوفة". إلى رئاسة حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني النازي الحاكم".. (تعددت لنا الاحزاب، وتنوّعت التسميات، لكنها من منبع واصل واحد)..

ولم يصدق احد بانه قد مات تحت الأرض، وما زال ينشر ظلاله الرمادية فوق اعدائه، بقي اسمهُ جريمة لن تقل شأناً عن جرائمه، التي اقترفها. حيث لا ينهض الميت، أبداً، ولا يعود التاريخ أبداً، وكل بكاءٍ على الماضي مضيعة للصفة الإنسانية، صدقني لا فرق عندنا"..

حدثني انه قال: (لقد ذكرتني بالعم "كانون" البقال الذي حول بقالته الفاشلة الى معمل اكياس ورقية، وكان يأتي بأكداس الكتب الى مخزنه، ليصنع منها اكياس بمختلف الاحجام. عملت معه، وتمنيت وقتها المعرفة بالقراءة، لكنت استمتعت بمختلف تلك الكتب).. الزعيم السياسي الألماني والديكتاتور النازي الفاشي (Adolf Hitler) كان مولوداً في النمسا وقد تدرَّج حتى وصل الى رتبة قائد حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمشهور بالنازي حكم إمبراطورية ألمانيا من سنة ١٩٣٣م، وبسبب طموحه الشرير قد نشبت الحرب العالمية الثانية. يومها جعل من نفسه المستشار الأعظم لألمانيا (رايخ سكانتسلير) ٣٠ يناير ١٩٣٣م، وجمع بين المنصبين "الفوهرير" و"الرايخ سكانتسلير" ثم انتحر بعد خسارته بطريقة غامضة، اذ دمرت ألمانيا بالكامل سنة ١٩٤٥. اسس في عهده المنظمة الإجرامية "الجيستابو"، والتي كانت تصفي بشراسة كل الرافضين لنظامه، ارتكبوا مجازر بشرية لن ينساها التاريخ مثل كل الذين ارتكبوا جرائم الابادة الجماعية.

- "يوما ما سيتعرضون للمسائلة العادلة"!..

انتظرني حتى التقطت أنفاسي، وقال معترفاً:- " بكائي لم يكن بكاءاً حقيقياً"!!. فأخبرته "اني كنت اعرف كل ما كان يدور في خلده".. عاد إلى القهقهة، قائلاً: "والله يا سيدي لقد تبارينا في نفاقنا".. (الأقدمون جلسوا بعد سفر طويل، بالملل وسقمه، بالتراب وعفره، مع

البعير وخواره، يَحْلِبون الحَجَرْ، ويلوكون الفراغ... مع العمر الذي هدتهُ العواصف الصفر، وإذ تقاسموا الخمس، لن يكونوا مترفعين عن الخمس الخامس المتروك إلى بيت المال.. عيونهم عليه، سيفهم يقطر غيضاً، وقلوبهم معه.. صنعوا منهم مرتزقة يشاركون البعير العَلَف، ويقرّ لهم المكان الذي يستعدون فيه النية، وان فشلت نواياهم أكلوا البعير من الظلف إلى الذيل، كما كانت السالِفَة تأكل إلهة التمر، من يأكل آلهته، يأتي بغائطٍ مبارك)..

صارت تعاودني الضحكة البلهاء، ذاتها، وتفسد عليّ متعة الاستمتاع بالأغنية، ولم اعد اتمكن من التواصل معها بعد ذلك الذي جرى، فأبقى متسائلاً كيف يكون لون الحزن الايطالي، مثلما لهم خصوصيتهم الشجية في براعة، الغناء.. قد اخترعنا الغناء، ولكننا اطلقناه مع البعير في الصحراء، حيث لا يرجع الصدى ولم نعرف النظام. لم نسمع انفسنا لنعرف تنظيم ما نسمعه. هكذا بقينا نكرّ باجتهادات لا تتشابه. (كان "كنشت" يعجب بالأب حتى في اندفاعاته الظالمة الغاضبة، مع انه في ذلك الحين يعرف بالضبط من هو الاب "ياكوبوس"، كان يرى فيه ببساطة عالماً عميقاً عبقرياً، لم يكن يعلم انه علاوة على ذلك رجل يقف بوعي في تاريخ الدنيا، ويسهم في تشكيله، انه السياسي العليم بالتاريخ السياسي وبالحاضر السياسي[٧]). الكرة تتدحرج، فتصطدم بالكرة المستقرة. ثمة نغمة، وثمة فكرة. هل تعرف آلة البيانو. مؤكد بانك شاهدتها ولكنك لا تعرف اسمها، مثل

[٧] هيرمان هيسه- لعبة الكريات الزجاجية – ترجمة: مصطفى ماهر- ص ٢١٣

اشياء كثيرة حدثت امامك ولم تعرف ان تسميها باسمها.. الكرة ذاتها من الزجاج تلمع بصورة وربما تعطي كما يعطي المشور الوانه السبعة. هل تعرف الموشور الزجاجي؟ انا واثق بانك رأيته، وأكمل ما حفظه مني:

- "مثل اشياء كثيرة حدثت امامك ولم تعرف ان تسميها باسمها".

اتابع عيناه كلما تحط على المدالية التي فيها كرات زجاجية، تلمع كلما اختلّت سرعة سير المركبة. كنت اتابعه، مخافة ان يختطفها مع مفتاح المركبة ويتركني لا اعرف دونه وسيلة. وهل وجدتُ ضالتي، وانا لا افهم الاغنية. "لم تكن لغة الأغنية باللغة بالإنكليزية.. بل كانت بالإيطالية"..

(كأني احدثك عن السراب، الذي تظنه بحراً حيث لا حلزونات بحرية بلا بحر، مثلما لا فكر دون علم)..

بعدما همّ بالنزول: رجاني ان أتصل به إن احتجت إليه، وعدته بذلك، فكتب رقم هاتفه المحمول.. على جزء من غلاف علبة سجائره، وناولني اياه. قال معرفاً عن اسمه "جوفاني"، ثم قلت له" تشرفت بمعرفتك سيد "جوفاني" اسمي كنشت"..

(لا ادري لمَ شاهدتُ تنيناً طائراً فوقنا، وكانهُ من تأثيرات فلم السهرة الذي تمنيت ان اشاهده كاملاً ولم استطع. نحن شعب يأخذ من المتخيل اكثر مما يأخذ من الامر الجاد).

فما ان ابتعدت عنه.. حتى عدت الى تشغيل الاغنية، ومحاولاً معها عبور مخاوف الطريق الباقية، ومن ثم رحت اعبّ الهواء الى صدري، بحرية.. كأني كنت غاطساً في عمق البحر المالح المتوسط، من بعد ان فشلت جدياً في ايجاد معنى تلك "الحلزونيات"، وان ابحرت في متون اوهام الكتب.. شيئا فشيئا وجدتني اصحو من غفوتي، الموسيقى تعمل دون توقف. وجدتني باني لم اغادر بيتي، وانا في سريري، ولم اكن مسافرا الى تلك المدينة البعيدة..

بعد ذلك جلستُ استحضر ما رأيت، وقررت ان اكتب هذه اللعبة بين الحقيقة والواقع، ورحت ارسم صورة ذلك الشاب الضاحك بحزنه، الذي لم يتجاوز العشرين، وهو يلوح لي، كأني قلت له ناصحاً، انتبه لنفسك، وابعد اصبعك عن الزناد القاتل، فربما تطلق الرصاص وقد تستقر واحدة في ذاكرتك، وتتسبب بعذابك الى الابد.

Saturday, May 25, 2013

كونشيرتو النسيان

أن تنسى؛ ذلك أمر لن تستطيع تحقيقه ساعة تشاء، ستجد الأمر الذي تودّ نسيانه ينقضّ عليك ساعة يشاء، ويتركك ممزق الأوصال تعاني سكرات الهزيمة، تبقى متذكرا إياه حتى وأنت تهرب بعيدا عنه بموسيقاك، فالمكان كله سوف يتحرك، يمور كبركان، (فعيناك عيناها، وجيدك جيدها، ولكن عظم الساق منك دقيق[٨]).. أن تنسى وأنت تعمل؛ تذكرك بها عشرات (الكمانات) وواحدة أخرى تصول حزنا بليغا، يقذف بك إلى حافة (ترامبيت[٩]) مترامي الأطراف كإخطبوط يلتهم (غيتارة) رصينة، تُسايرها دمعة، تنهمل بلطف كما تبكي (الجلو) السمينة بتواتر متوازن مع شقيقها (الكونترباس) العملاق، وهي تتهادى في صفاء الكون، حيث لا صفاء، أبداً.. فتفترض وأنت تصوغ اللحن بأنك تركض لتلحق بالقطار مودعا كل شيء وراءك، فتفترض أو تركض مع القطار الذي بدأ يتحرك، وتصعد إلى عمقه الافتراضي، تختار مكانا يشرف على الطريق الافتراضي... تحمله في حشاشتك، وتدرك بأنك بدأت تنزع شيئا من جذورك، كلما يأخذ المقعد الذي تحتك بالاهتزاز، يشعرك احتكاك العجلات بالسكة، يسحبك إلى خارج الأماكن كلها لتصبح طائفاً في الفضاء معدوم الوزن، تحلق بعيدا عن مكان التذكر.. شيئِا فشيئا، تزداد سرعته، تنسل بهدوء، إلى خارج الأمكنة، تختطفك بلحمة وتقذف بك حيث ما يريد اللجّ.. قضيت أمرك فاشلا في علاقاتك.. تنسلخ، تريد أن تعاقب نفسك، تدفع ثمناً غالياً عن هذه القرارات التي

---

٨ * ذكره أبو علي القالي في أماليه...

٩ آلة موسيقية

لا تعرف ما لها، وما عليها. النغمات تظهرك الزاهد بكل ما خلفته.. الحافة الحادة ذاتها التي وقفت إليها وحيدا، مع مدوناتك الموسيقية؛ تلك المرأة التي تمرّ أمامك دائماً، بعطر يخترق الأبعاد، ساقاها الدعجاوان كشف عنهما ريح شهر (نيسان)، عندما كانت ترتدي فستانا من الساتان الربيعي مكشوف الصدر العاجي والظهر المرمري، برز مفاتن نهدين كفرسين جامحين عصيين على الترويض، احتقنت الدماء في العروق وصرت إليها لا حول، ولا قوة.. تمشي منقادا ولا قرار لك صرت تراها أجمل من قبل وصرت تشتهيها، وتشتريها بكل ما في دمك من دفق، أيقنت بأنها تمشي على قلبك، أو قلبك ينبض بهداها، وتود أن تشاطرها النفس، كما تشاطرك، تود إن تعزف بملمسك جيدها، وشفتيها، وصدرها النافر؛ أو أي مكان سيحويك موسيقياً ناثرتهُ النغمات، بلا ذكريات، بعد أن تجاوزت الثامنة والخمسين بحافة رديئة تميل بك إلى المنتهى من هذا العمر الطويل، فأين المفر من كل هذه التجاعيد التي حفرت آباراً.. كأنها معابر إلى العالم الآخر فقد صار صلبك منحن إلى الأرض.. بذاكرة تعج بالصور، تعج بالأشواق إلى حياة مفترضة كان ينبغي عليك أن تنجزها كما ينبغي على الحياة أن تنجز، ممحوة الحروب والمخيبات بها آلاف الانتصارات والانتصابات.. بيدك تصوب الأخطاء التي ما كان عليهم أن يحسبوها عليك أخطاءً.. قبل سنين طويلة التقيتما وزاحمتك بحضورها، كأنها بندول ساعة؛ لابد وان يمر بك كل لحظة، تورطت بها عندما هربت من بيت أبيها، بسببه، كانت لا تريد

العودة، مغتصبة منه، بقيت محشورة في حياتك أربعة وأربعون يوما تلبي كل ما تريده منها كامرأة، وصارت بيومها الأخير تحمل جنيناً منك.. لم تكن تصدق ما مرّ عليك بالرغم من إنها جاءت إليك تتشكى من الدورة الشهرية، وآلامها، وكثافة دم المحيض، وجعلتك الصدفة ترّ بعينك كلّ تلك القذارة البيولوجية.. كل شيء مدون في مذكرة كنت تحرص عليها يوما بيوم، تدون، تؤشر، وتعيد قراءة ما تكتب: امن المعقول بأنها حملت منك، فالبيت مقفل، والخوف كان يتربص بها لان هناك من يترصدها بالقتل، بعد أن شكوته إلى المحكمة، يومها كانت جد ضعيفة ولم تستند على احد، وذلك من حسن حظك.. بقيت تتحدى بك كل ما تخافه، وقبلت بعملية الإجهاض، ولم يكن أمامها من خيار.. بكت بحرقة (نغمة قرار) لأنك لم تصدقها، وكانت تعطيك العذر، وكنت تخبرها بان زوجتك انفصلت عنك بسبب العقم الذي اتهمتك به، فما بقي من طبيب او عارف إلا وطرقت بابه.. المشكلة تفاقمت في راسك يومها، وكنت على استعداد على ان تنشطر ميتا ولا أن تقر قرار إسقاط الجنين من امرأة، أمها تجول الشوارع، وأب نزيل سجون..

القطار المفترض يسير إلى الأقاصي، (كورس الكمانات يشدو)، تارة تحتدم عجلاته مع السكة، والاهتزاز يشاركك فيه ركاب من كل صوب وجنس.. فيهم الجميل الناعم، والقميء الغليظ.. أوجهٌ باسمة وأخرى عابسة، وجع، وارتياح، أحزان ومسرات.. كأنه سوق مدينة يعج بمختلف الروائح المختلطة، الطيبة، والنتنة.. الظاهرة

والخفية.. الرجل الأنيق الذي بجانبك، برفق، يقدم سيجارة.. يصرّ على أن تأخذها. يبدو بأنه كان منشغلا في القراءة طوال فترة الصمت، التي كنت أثناءها سارح البال. يأكلك القلق، كأنك ستستقر.. على حافة حادة من المجهول.. لم أنت أكثر توجسا؟ ليتك تمسك قلما وورقا لتدون فيها قصة حب نزعتك من كل ما تملك، تكتبها، وتناولها إلى يريد أن يقرا تبوح بحزنك، وتنزع عنك بعض الحزن كما تنزع الشجرة قلفها وتتجدد، ولكن الأفكار تهرب لا تنتظر، أما أن تكتبها بلحظتها، وإلا تراكمت وتضاعفت وزاحمت الذاكرة وأنهكتها وجعلتها خربة تأكلها حشرة السوس.. ولكنك لم تعد تكتب منذ زمن، كأنك لا تريد أن تكشف أحزانك البغيضة.. ليس تحسبا لما هو قادم، تجول عينيك في الفضاء المفترض.. تستطلع الهدوء الرتيب الذي يخترقه صوت جلجلة السكك الحديدية، والمختلط بلغط الركاب حيث الصوت يمور، يسحقك، يعذبك يلومك ويمنعك من إغفاءه قصيرة.. ما الذي جعلك تفترض على قطع التذكرة إلى آخر المطاف؟.. وان أخذت القطار الافتراضي تلو الأخر، وعبرت المحطة الافتراضية تلو الأخرى، لأجل أن لا تصل حتما، حيث لن تجد أحدا يقبلك، بعد أن كرهت تناقضات الواقع الحيّ، ولأجل أن لا تنفصل مهزوما عن الماضي، برؤية من سيتشرف حقائق الأمور.. للمرة المتكررة تنكسر، وتنهض من الركام، تهرب من قصة غامقة إلى أخرى، تطأطئ الرأس، تتركه متهدلا إلى الأرض، مثل ذيل مفصول عن جسده.. تحول الهزيمة إلى نصر مؤزر.. صفير القطار يأخذ كل رؤاك، لا

يدع لك لحظة واحدة للتفكير بالتراجع، البتة. يصرخ فيك الإنسان، الذي تحمله في خطواتك القلقة أن تلتزم بالزمن، بالوعد الذي قطعته على نفسك.. خطواتك تتقدم، وقلبك يتراجع، ولا أحد يحنو عليه.. (نغمة قرار، وبقي كورس الكمان مستمرا بالشدو)، بعد سنوات عندما مات والدها في السجن مقتولا، بقيت هي على حالها تتنقل من مكان إلى آخر، وراحت تقترب من الرجل الذي تريده، وما ان حملت منه حتى أجبرته على الزواج منها.. يستبد بك الإعياء، والتباطؤ، والتعثر.. فكيف تقرر الرحيل؟ لأنها تلاقيك في طرقك، وأنت الهارب الى النسيان.. تغزوك الصور، تغرر بك المشاوير، لتعود خائبا لا يمنعك عن تذكرها أي شيء، قصص الحب التي مررت بها بفشل تمنعك من التواصل مع الواقع، أنت الآن تؤلف موسيقاك متذكراً آخرها؛ قبل عشرة أعوام كانت متزوجة منك، وانفصلت عنك طائعة غير مرغمة، وحققت ما كانت تريده هي بان تكون أمّاً من رجل غيرك، من بعد أن رأتك غير منجب، ووهبتها حريتها كما أرادت، ودون أي جدل وافقت، كونك اكتشفت انك لا تريد شريكا فيها، و لا تريد من لا يريدك... وجدت متنفسك بعيدا عنها، من بعد أن كنت تتخيل العالم لا يستقيم إلا ومعها، تتذكر تانك الشفتان الشهيتان كدراقتين مليئتين بالطيب، وتانك العينان بقيت تمتلئان بالرفض يصيبك الانفصال كل مقتل، بكل ازدرائه، وذله.. كان الافتراض بداية من الممكن تبتدئ بها أغنياتك القادمة، فلا عاذل يلحقك، ولا سفير شرّ تجهله يعترض الطريق، حيث الموسيقى العظيمة كفيلة بتغير

مسارات الطرق التي ترتجيها، وخاصة تلك التي أجهضتك وسورتك مقيدا بخيانة مقيتة. ترى ما الذي يجعلك تهرب؟ هذه المرة، بين صفير يغلق لك كل ما تريد التراجع عنه، ومحطة الحزن التي تتركها.. يومها قلت لنفسك كيف تكون أبا لولد سوف يعاني من تاريخ أمه الذي فض بكارتها جده، مؤكدا ستمسي كجدتها تدور بين مخافر الشرطة تعزز من سلطتها بمعرفتها أحضان الضباط.. مدّ لا يعرف الجزر، استنفدتها في الخطوات الحائرة ذليلا مفزعا من الأماني ما تراك فكرت بأحد هذه المرة هنا شاطئ الطفولة الذي أطلقك قويا فما الذي غيرك إلى هذه العاصفة.. لماذا تقرأ هذا القرار القاسي؟ بكل هذه الرغبة المجنونة، قلبك ينزف، جفاف، وحرقة.. وجوه متداخلة بعضها، كأنها صورة واحدة لرسام واحد، وضع ملامحه في كل وجه منهم... وجوه متعددة زحفت ألوانها، وتداخلت بتدرج لوني، كأنه زحف طباعي صرت متيقنا بكل جملة لحنية تكتبها، تجعلك تتحدى الطمر والاندثار (تعادل الإنجاب، وتبدد العقم)، تبقى في شاخصة بذاكرة الإنسانية هذا ما قاله لك ذات يوم احد العظماء الذين ما زلت تقرا لهم، فذلك الوجه الغاطس بين منكبين عريضين، متهدل القامة. كأنه بطل حارة ما من حارات (نجيب محفوظ) العظيم، وبجانبه أوضحت معالم (رجب إسماعيل)، وكأنه يودع (أشيلوس[١٠]) بعد حين.. دمعة المرأة العجوز لم يستطع إظهارها رجل، مثلما أظهرتها ريشة الأدبية (جورج صاند).. وجوه أسيرة عاجزة عن الخطو حلم ما

[١٠] سفينة عبد الرحمن منيف في شرق المتوسط

حطت عليه أنامل (فكتور هيغو)، وجعلتها تتفوق على ما رسمه (تشالز ديكنز)، وجوه تعرفها تمام المعرفة لم يصادفها (جان جينيه) في أي سجن من السجون الأخلاقية التي كان يدخلها، وإلا لكان قد وصفها في (يوميات لص)، ثقافات متعارضة، ومتداخلة (جيكوف)، (شولوخوف)، بالقراءة وبالسماع فما بين (موزارت) و(جايكوفسكى) قيد أنملة وحتى أغاني (محمد عبد الوهاب) من قصائد (شوقي) أو غيره، يبدو انك بدأت تغفو، وراحت الصور في ذهنك تختلط.. (أما القياس فهو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه كرفع الفاعل ونصب المفعول في كل مكان وان يكن ذلك غير منقولاً عنهم[١١])، تتورط أكثر فتغص في متاهات العقل العربي ونظمه المعرفية المبنية للشاهد على غياب الغائب، أو بطلان البيان بالعرفان، تتحرى الفكرة، وتتذكر بعض ما غير مقاييسك الفكرية (معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، ووضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك[١٢])، تود لو تطفئ سيجارة مفترضة وتدوسها بكل ثقلك.. تجول كالريح، متعادلا مع اللغط الذي يملأ العربات، تتصاعد كهم يكتم أنفاسك.. الرجل الذي مقعده في ظهر مقعدك، قص على رفيقه كيفية خروجه من السجن، والرجل الذي على جانبك الأيسر، خلف الرجل الذي يجلس إلى جوارك يفز من غفوته، ويطفأ سيجارته التي نسيها بين أصابعه، بعد أن لسعته

---

[١١] ابن الانباري الأغراب في جدل الإعراب

[١٢] السيرافي في مناظرته مع متي

جمرتها، امرأة عجوز.. تبحلق في وجهك، فتتحاشى النظر إليها، بائع السجائر يلح عليك من اجل أن تشتري منه عوالم متداخلة.. كأنك اختصرت الزمن كله في لحظة هاربة محطات في الذهن.. موسيقاها، تمرق مثل الضوء.. (نغمة قرار) كل ما فيك مؤجل للوصول.. بعينين نافذتين تمزقك العجوز، تضيق بك ألأنفاس... أن تجد بعضا مما بنفسك في كل الناس، تنكر ذلك لنفسك، (فلو أمكن تصور وقوف على اللحظة التي يحصل العلم فيها ضرورة وحسب حساب المخبرين وعددهم لامكن الوقوف[١٣])، تود الآن أن يهرب بك القطار المفترض بالسرعة الممكنة، لكن ما باليد من حيلة، فالتخيل اخذ فضاءه الافتراضي، دخلت فيه بلا رجعة، حالما مستسلما لحلاوة النغمة المفترضة بالبوح، ومازالت تنتظر إلى صوت آخر تظنه يستأذنك بالجلوس، تتركه معلقا في الفضاء المليء بالأصوات المتداخلة، فيجلس دون أن ترد عليه، يقطع شوط الاختصار، وهو لا يمت إليك أو إلى غيرك.. صلة سوى ما يمر من ساعات مشتركة بالسقم.. كنت تود قراءة عينيه، فقد تعودت قراءة العيون، تعودت اختراق تلك المسافة الإنسانية بمعرفية إنسان يعرف الدرب من قبل، تستشف ما فيهما من معنى، وتتخيل أنت ومن معك كأنكما أبوين منشغلين بالكائن الهادئ الجميل الذي بينكما.. من بعيد، رجل فتح حدقتيه على اتساعها، وكأنه يتابع بلهفة دقائق الجسد المضيء... الذي غير مجرى احتمالات الكآبة... عيناه منشغلتان بتتابع حركة شفتيها،

[١٣] الغزالي

وتفاصيل الوجه الجميل يبدأ صاحبك بالشروع في حواراته المتفرعة، قبل أن تشرع في الحوار معه حول الكتاب الذي طواه جانبا، وتوجه بكل حواسه إلى المرأة أردت أن تنزل من برجك العاجي، إلى حوارهم، ومن ثم تحلق بهما نحو عالم الكتب، ولكن ما فيك كان كافياً.. تركت أوهاماً، تكلست في قعر الذاكرة، كل ما فيك محض أفكار غامضة عليهم، واضحة وجهتك؛ تقرأ تفاصيل وجهه، يبدو محدث نعمة، الدقائق تلو بعضها بثقل، الوجوه كلها غائمة بآمال مؤجلة ركاب ينزلون، وآخرون يصعدون، وأنت باق، بخوفك، وبتوجسك.. تبحلق في كل العيون التي تمرك.. متكور، متداخل مع بعضك، تقرأ الإسار وتكشف الملامح كلمعة واضحة يشع من بينها، ما هو غير مألوف وغامض.. دار بينهما الهمس، بدأ: - (من أين أنت)؟... وبعد سنوات لاقيتها أيضا مصادفة في حافلة كانت تقلكما من مكان الى مكان، ومن زمان الى زمان، أخبرتك عن روع قتل زوجها بانفجار سيارة مفخخة أدت إلى ضياع جثته.. حدثتك عن زوجها المحب المخلص وعن ابنها المختطف الذي لم تره منذ سنتين.. عن أيام أبيها التي لا تريد تذكرها، عن أمها التي لم تكن تكرهها أبدا، وعن مساعدتها لها في الارتباط بزوجها، وأيضا عن أمها التي أصبحت قتيلة بين يوم وليلة ولم يكن ذلك قد أربك علاقتها مع زوجها.. رايتها تخلص لزوجها إلى حدّ التفاني.. وقد رايتها أكثر من مرة تتأبط ذراعيه ويظهر بها في الأماكن العامة.. يومها كنت تعاني سكرات الندم على ما أضعته لكونك لم تستطع ان تصدق بان امرأة

غيرها تحمل منك.. يوما ما عرض عليها احد أصدقاء زوجها مبلغا خياليا للتغرير بها، ولكنها صارحت زوجها الذي كان على علم بالأمر برمته.. (كورس الكمان يشدو) الموسيقى تدور تجعل الأرض تميد من تحتك وتتنقل من حدث إلى آخر، ومن يوم إلى آخر، حتى صار العام يمر تلو العام، لم تكن تعلم بأنك سوف تراها بين هذه المفاصل ولا يمكنك التخلص منها، وأنت تعرف بأنك لا تحبها أبدا؛ كم هي حاضرة كسكين على رقبتك تعصف خوفا وقلقا.. الزمكان المفترض يسير بلا توقف (كورس الكمانات يشدو)، والشخصان باتا غارقان فيه، ولن يسمحا لك بالدخول. تستقر عيناك على الرجل الذي يدخن كقاطرة لا تعرف التوقف بعد أن نحى الكتاب جانبا.. كأنه يبالغ في إسهابه معها، تعرف بأنه يكذب، و يتجاهل (مايسترو) مازالت الدفة الكبرى بين أنامله الرهيفة... (كورس الكمان يشدو)، أن تنسى؛ مشكلة جعلتك تنهمك بعملك الافتراضي، كفاتحة أولى، وضعتها بعزف منفرد تصاعد كهمس (آرغن[١٤]) مأخوذ من كنيسة موغلة بالقدم..

نشرت في جريدة الزمان

السبت، ٢١ شباط، ٢٠٠٩

[١٤] آلة موسيقية

الجميلة شاكيا

١.

بقيت أتساءل؛ في ذهني تتّرى الصور البشعة، كيف سأُدونها بموسيقاي الرهيفة؟.. (بأية وحوش نفذوا جرائهم؟)؛ بقيتُ متسائلا من بعد أن وصلتني دعوة لكتابة (كونشرتو) تقودها نجمة هوليودية كـ(شاكيا) حاصلة على إعجاب البلايين من جمهور هذه الأرض، كأنثى بديعة الحسن ممشوقة القدّ بقوام فاتك بكل معنى الكلمة، بحلاوة رقصها أو بغنائها، لوحدها جابت شاشات الفضائيات بنجاح منقطع النظير، تعرف ماذا تختار من الموضوعات الإنسانية، ومع من تتضامن التزاما، ومضمونا، وتعبيرا؛ إذ رشحني مدير أعمالها لعمل مقطوعة ضمن عمل ملحمي تضامنا مع نسوة البحر المتوسط، وتشترط فيه أن يكتب الجزء الخاص بمناصرة النساء المنتهكات، وما يجري عليهن تحت طائلة المسميات من تجاهل، ومن استلاب.. فأردت لمؤلفي أن يتميز، وعارف بأنهم يحرصوا تمام الحرص على أن يظهروا العمل متكاملاً بكل حيثياته، يسجل لنجمهم النجاح الأكيد، وإلا فلا، وقد صرت على يقين تام بأنها فرصة عمري، وقد جاءت، فأما أن أكون أو لا أكون حسب تعبير (شكسبير)..

كان علي أن اشدّ الرحال إلى (بغداد) محور الحدث الساخن حتى اصدق القول للعالم اجمع باني متواصل مع مواطني بكل ما عندي، وأتجاوب معهم روحا وبدناً، فانطلقت فور إشعاري لهم بالقبول الرسمي..

.٢

بقيت ممتقعا، خجلا من هكذا عصر يسفح على بياض الجمال، الأحمر القاني، فأنا لن التفت مجددا، وسأقف محايداً في عصر كهذا، لأقول بموسيقاي بأنك كنت من خلخل ثباتي بتينك العينين الآسرتين، الثاقبتين، واني أعود لكل ذلك التذكر أيام كنت في الخامسة عشر تعبرين إمامي إلى مدرستك، وسأتذكر عائدا إلى ذلك الربيع من طفولتنا؛ كيف خطبوك، أو زوجوك فأوقفوا لي سرّ النهر والنرجس، وكيف ركضوا خلفي في البراري حتى صرت طليقا من قبضتهم، لكني لم افلت منك وسأترك وصف ذلك القميص المثير الذي انبرى متموجا على تفاصيل قدٍّ ممشوق بهيج؛ كقدك.. اليوم وبعد أن فات الأوان تراني هل استطع أن أدون أنغاماً قد تقوى على البوح بكل المعنى، بقيت مفكرا فيما آلت إليه الأحوال، ينادمني ندم شديد، على وقت لم أدوّن فيه ما حدث بالضبط لأني وددت أن اكتب عن (شاكيا؛ امرأة طاغية الحسن في الثالثة والثلاثين، اقتيدت معصوبة العينين في نهار متوتر مشبعا بالعطنة، والغبار، من بعد أن أجبرت على ترك ابنها الرضيع في حضن خالته، وأدخلت في صندوق السيارة عنوة، تحت وطأة أربع مسدسات تعبر أسواق المدينة، ولم ينفع معهم صراخها البتة)؛ فأجد الموسيقى تتفرع في الذهن وتصبح عصية عن النزول إلى التدوين، فما أن افتتح سطرا حتى تنهمر علي الأفكار الأخرى تغزوني تعصف بي، وتشتتني لأبقى ضائعا في التيه المفجوج أمامي، منحلا كوتر غير مشدود، فكتابة موسيقى لنجمة

بشهرة (شاكيا)، لابد وان تكون بالغة الخصوبة، بالغة الذكاء، تتقد في إذن مستمعها المثقف العارف، و تحقق ذاتها، (الموسيقى هوية بالغة الحدة، أما تكون أو لا تكون- سأذهب بها حيث استطيع)، وكأن الموسيقى التي أود كتابتها تحاصرني تمزقني، وأنا ألامس الأحداث بكل حواسي.. (أن أصل إلى أقصى الحدود الحقّة)، ولأجل أن لا تضيع مني البداية التي أريد أن أتابعها، اكتب، وإنا اعرف كيف يتعامل العالم المتحضر مع هكذا إحداث حقيقية، أصفن كحمار افلت حبله، متفكرا لا ادري إي خيط أتابع، عارفاً استحقاقها، أكمل الأفكار المتوالدة من بعضها، لأنني أمسيت كسيرا مكسورا، بلا أسرار، وأقول بأنني الوحيد الذي سهدت عيونه، وانشغل باله، وباني سوف أبقى غافيا في نشوة حلمي بك، متلذذا، وكأن أصابعي تحسس جيدك الأهيف، تعزف عليه أجمل نغماته، وأتكتم عما شاهدته في الحلم، أو في الحقيقة. عن استشرافي الموغل إلى الزمن القادم، فالحلم في شرقنا الأوسط يبغضه السلطان والزمان، سأحكي لك عن زمن مستعاد بالياقوت ذكرته معاجم البلدان، عن أسرار قلب هزمته الفضيحة، وعلقه المعلقون في شباك الأسى، كم كانت المدن تغصّ في قدمها، فأشتهيك و لا اكتف بمكان، وسأنشر قبلاً على جيدك الشهي الأبيض، المشع، البض، القاهر.. بلا توقف فمثلي بداخله مداخن حروب آهل الفضاء مع الأرض، سأقبلك بالرغم من هذا المساء الثقيل الآسن، الضارب بالنتانة، الضارب بالغلّ والفوضى. سأقفُ انظر فيما مضى متأملاً ما كانت عيناك تشع به، فأنا ما رأيت أجمل من بريقهما

العذب، ولا رأيت ابلغ من لمعة دمعتك وهي تسحّ إلى مفرق نهديك البهييّن، بودي أن ادفع بلساني واجرف به ما استطيع من كل ذلك الذي يتسرب في بدني كارتجاف نشي، فدموعي تقول (شاكيا) وحدها مسلة التذكر بخدين متوردين، دوماً يشعان افتتانا يعجز عنه الشعر، كان بودي أيضا لو لامست الشفتين الشقيتين بشفتي العطشى، الثمها نازلا صاعدا، متأنيا ومتباطئاً، متعثرا أو واثقا، فانا اشتهيت أن ادفن ما بقي مني بين غمارك، ولن أكون إلا المنتصر، وسيكون انتصاري على ما فات مني كفارق بيني وبينك، وسأختصر بأنامل دافئة كل مناطق النعومة التي صارت فارقا بين الذكر والأنثى، بين الرجل الشرس وبين الأنثى الناعمة، وستجدي الخمسة عشر عاما منسية في أتون اشتعال ينال مني قبل أن ينال منك، وسأقف طوال ليلي حارساً لهدبك الناعس على مخدة الأميرة.. الحلم أن يتخلص الشرق من شرقيته الراكدة في قعر زجاجة التاريخ، وأن نعبر مدونة (ابن خلدون) عندما قال بأننا من البرية واليها نعود حتى لولبه السابع.. نعود في حين يصعدون المصاعد إلى ناطحات السحاب، ونحن ننزل من البعير لنواكب تراب الصحراء.. فمن حقي بأن أصوغ اسمك من الورد يا (شاكيا)، ولي أن احلق في فضاء من هياجي، فالشكوى من جمالك الأخاذ مذلة..

.٣

(الشابة أخذت معها ابنها الرضيع إلى السوق، وهي تفكر في كيفية أن تتميز على قريناتها، فصديقتها التي كانت في الثانوية معها سوف تتزوج بعد غد، شقيقتها الطفلة جعلتها تتوقف هنا أو هناك لأجل لعبة أو حلوى).. أعود إلى الزمكان نفسه لأكشف كيف بقيت أقف وراء التاريخ ولا اصدق الحكاية حتى صارت الحكاية تسرق مني عقلي، وتقيدني بالقوالب المريضة لأنها أصبحت آلة قياس لا يقبل بها سوى من لبس ثوب كثوبي ونطق حرف كحرفي، فالأشجار سماء لا تطولها نافذة الزنازين الشرقية، ظنا منهم باني سوف اشرب بسهولة ما يريدون مني شربه، وكيف لي أن اشرب وأنا اعرف المكونات، قال لي احد الصحافيين في المشفى: (صرتُ أكثر إصرارا على أن لا اخبر زوجتي بطبيعة عملي، باني تحولت من جامع ورد وفراشات إلى جامع لأخبار الجثث، وأتكتم اليوم بمثل هكذا ظرف طارئ يعيشه البلد، وأحاول قدر الإمكان أن أنسى في الليل ما أراه في النهار، وصرت اعد الأيام يوما بيوم عسى أن أصل إلى نهاية هذا العام التعس)، (قال مسئول في وزارة الصحة العراقية إن مشرحة الطب العدلي في مدينة بغداد تلقت خلال شهر آب ٢٠٠٦م عددا يفوق عما ذكرته وسائل الإعلام (٢٠٠٠)، اذ قضى أصحابها نتيجة أعمال عنف مذهبية الطابع آو عمليات قامت بها عصابات مدعمة من وراء الحدود)، وأوضح المدير العام لوزارة الصحة:- (مشرحة الطب العدلي تلقت ١٤٨٥ جثة قضى أصحابها في أعمال عنف)، وأضاف

(هناك نساء وأطفال بين الجثث). وهذه الأرقام اقل بنسبة ١٤% من شهر تموز عندما تلقت المشرحة ما لا يقل عن ١٨٥٠ جثة، وهو الرقم الأعلى منذ بدء حرب العراق في آذار ٢٠٠٣م)، و(بقيت الجثث مكدسة في ثلاجة الموتى، ولم يعرف احد ذويهم، كلما يعرف بأنهم وجدوهم مغدورين على أطراف المدن)... شاكيا خصر أهيف كأنه عمود من المرمر، وجيد غضّ يتلألأ بما يعلق عليه وكأنه يحول الحلية الكاذبة إلى ماسة مشعة غالية الثمن.. كيف لي أن أعود متحريا كيفية موتها، قصتها الحقيقية، (أزمة وقود، وأزمة كهرباء، وأزمة ماء... الأزمات تتداخل بالأزمات)، متحريا كيف صمدت بوجه الوحش، حتى نال منها، (أرى رجالا سودا معوجة الوجوه تبين ملامحهم كأنهم ذي أصول عرقية مغرقة بالحقد الأسود، علقوا أسلحة أتوماتكية إلى الأكتاف، وطالبوا أبناء البلد بإظهار البطاقة الشخصية، أجبروهم أن ينزعوا أحذيتهم إن كانوا قد خبئوا فيها بطاقتهم الأخرى.. اجبر البعض على أن يحمل بطاقتين للخلاص من كمين الأماكن الآمنة، وكان الأمر طبيعيا وتحت إشراف القانون، عشوائيا ويربطونهم كما تربط النعاج في صندوق السيارة الواحدة أكثر من أربعة أشخاص، ويأخذونهم إلى اقرب نقطة للإعدام.. (حيرتي بأية آلة سأجسد هكذا انتهاك)، هناك يظهر لهم رجل دين كلمته هي الفصل النهائي ساعتها هو من يهب الحياة أو يأخذها)، أقف ملاصقا لهذا الهواء الحار، أتمنى قطرة ماء ترويني كما تكون عينيك الجملتين، (يسرقون الأشخاص أو الأطفال القادرين أهلهم على دفع مبالغ

خيالية.. ويحتجزونهم؛ أما أن يدفع عنهم الفدية أما يقتلوا، وغالبا ما يأخذون الفدية وأيضا يقتلون). تسنى لي أن اعرف القصة الحقيقية (معظم الرجال لا تخرج من البيوت إلا قسرا)، وقال المتحدث باسم قوات التحالف:- إن معدل الجريمة في مدينة بغداد خلال آب انخفض بنسبة ٥٢% مقارنة مع شهر تموز. ومع ذلك، أوضح متحدث آخر باسم قوات التحالف أمس إن الأرقام التي أصدرها الجيش الأميركي حول الجريمة، لا تتضمن أولئك الذين قضوا في التفجيرات الانتحارية أو القصف بقذائف الهاون. وقال آخر:- (الجرائم مذهبية الطابع بشكل أساسي لكنها لا تتضمن ضحايا التفجيرات الانتحارية أو القصف بقذائف الهاون). وهذا الشرح يوضح الفارق بين أرقام التحالف والأرقام الصادرة عن وزارة الصحة العراقية. (غالبا ما يتم إطلاق دفعات من قذائف الهاون على بعض الأحياء السكنية ويحدث تفجير سيارات مفخخة بشكل يومي تقريبا). يذكر أن القوات الأمريكية والعراقية أطلقت منتصف حزيران الماضي خطة (إلى الأمام معا) في مدينة بغداد محاولة منها لوضع حدّ للعنف، وقال مسئول في قيادة شرطة العاصمة انه تم العثور على ستين جثة مجهولة الهوية (رجال ونساء) في مناطق مختلفة من مدينة بغداد خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، وتم انتشال أربع جثث أخرى بينها جثة امرأة من نهر دجلة إلى الجنوب من العاصمة فيما أصبح حدثا كهذا مشهدا مألوفا، وهذا العدد من بين أعلى عدد للقتلى رغم الحملة الأمنية التي تشنها القوات الأمريكية والعراقية منذ شهر

في مدينة بغداد، ولكن مرت علينا أيام أسوأ، فأحيانا كنا نرسل ٦٥ أو حتى مئة جثة للمشرحة، وأضاف (أنه تم العثور علي ١٥ جثة في مناطق متفرقة بينهما (امرأة) بعضها وسط أكوام قمامة على الطريق شرق مدينة بغداد، أما في حي بجنوب العاصمة عثر على جثث خمسة خبازين ومعهما امرأة عليها أثار دماء، وتابع أن معظمها كانت مقيدة ومصابة بأعيرة نارية في الرأس، عليها آثار تعذيب وهي علامات مميزة لفرق الاغتيال الطائفية، وعصابات الخطف). فـ(في السوق اغتيل بائع طماطم، وبقي ممددا على الأرض، ومغطى بورق الكارتون، وراح الذباب أول من يلامس دمه، الشرطة المحلية تراقب الحدث، ولم تتوان عن التأخير بعد فرار القتلة، في القبض على الناس البريئة القريبة من القتيل، وحجزها، وإجبارها على الاعتراف بذنوب لم تقترف، فيغلق كل صاحب محل محله على عجل خوفا من القاتل، أو خوفا من الشرطة التي سوف تأخذ كل صاحب محل حدث الحادث بجانبه).. ماذا سيكون يومي هذا يا (شاكيا)، وقميص الشرطة يرفرف على المواطنين بالرصاص... وجهي أيمه إليك يا غالية، وأنت تشكين الأفكار المتراكبة في الرأس من جراء الصراعات والأطماع الإقليمية..

٤.

كانت قد حدثتني عن زوجها الذي ابتكر أذكى طريقة لكي يصبح غنيا جدا، وعن كذبه عليها بان يعيدها إلى ذمته بعد الطلاق لكنه اخلف من بعد أن حملت منه وتنكر للأمر مدعيا بأنه حلمت من عشيق لها تزوجها سرّاَ، وتركها مهاجرا.. شاكيا؛ طولها الفارع، بياضها، عطرها، وعمرها... تزوجت منه في الخامسة عشرة، عندما كانت طالبة بالمتوسطة، والتحقت بدورة سريعة للمعلمات، وحصلت على وظيفة في قرية نائية.. حدثتني؛ (طلقت من زوجها من بعد أن هجرها هربا من دائنين، ولكنه بعد أربعة أعوام أرجعها سرا ولما حملت منه، أشاع بأنه صار مجبرا على إرجاعها لمدة يومين شهامة منه أن يحميها من العار الذي سيلحق ابنه منها)، روى لي زوجها عندما التقيت به: (بأنها تزوجت بعد طلاقها مباشرة من زميل لها في المدرسة التي كانت تعمل بها.. بقيت مصغيا إليه بالرغم من معرفتي بأكاذيبه وطرقها، وكيفية صياغتها.. صرت اعرفه قبل إن يتكلم إذ خبرته جيدا.. استنتجت بان الفترة التي كانت مطلقة فيها، قد حمد لي معظم من قابلتهم بصفاتها وحسن أخلاقها، وإنها بالرغم من حاجتها لتعيل ابنها قد رفضت عروض سخية من مزارعين كبار، وتجار، ومضاربي بورصة؛ تحرص على اصطحاب ابنها إلى المدرسة وكأن ابنها أغلى ما تملك من بعد أن اختفى أبوه هاربا من الدائنين و وكانت صدمة قاسية عليها يوم أرسل إليها ورقة الطلاق بواسطة المحكمة.. بقي ابنها معها لم يفارقها لحظة واحدة ويهرب من حصصه ليبق مع

أمه في حصصها.. (لم تغير فستانها طوال تلك الأعوام و بصحة معتلة، ترفض بعزة نفس أي مأكل مها كان عذره)..

٥.

عرفتُ من اغلب الناس الذين قابلتهم وعاصروا أزمتها المضنية، بان زوجها هو من كان يشيع عنها زواجها الآخر، وبقية الأقاويل، لكنها كانت تحبه كأن لا يوجد في الأرض رجلا غيره..

قالت شقيقتها:- هو القاتل الحقيقي.. كان لشاكيا شقيق اتهم بانضمامه إلى حزب كان محضورا، علم من احد أصدقائه بيوم إلقاء القبض عليه فانسلّ في ليل واختفى، وأشيع بأنه القي القبض عليه واعدم في زنزانته، وضل ذنب الوشاية يلاحق الزوج كعقدة دائمة، اعكس عليها عنفا اسرياً لم تستطع ان تفك منه..

شاكيا وجه صاف، نهد نافر، أنوثة لا يمكن أن تحويها نغمات بريئة، ولابد أن تصاغ كأسئلة عصر خصيب بالمعلومة، قصة تنشدها اوركسترا تعزف بعبقرية أحلى ما كتبته البشرية من موسيقى، شاكيا شهوة طافحة الأنوثة، لا تعطي نفسها، كسطوة ورد ابيض به كل ألوان الشفق..

.٦

في نهاية النهار وجدت جثة شاكيا ملقية بالقرب من حاوية أزبال تتوسط مدخل المدينة، بعد أن هدد قاتليها كل سكان المنطقة أن لا يتم رفعها إلا بعد أربعة أيام، ولكن امرأة شجاعة اسمها (شاكيا) أيضا، قد تقدمت برغم كل خوف وغطت الجسد العاري بشرشف ابيض..

.٧

لا ادري لم قطعوا لها بنصرها، (حيرتي؛ بأية أداة سأدوّن هكذا انتهاك، واثبت قناعتي الموضوعية حتى افرضها على الذائقة)، جمعت ذلك البنصر الأبيض، البض، الذي حمل معه أسرار لن تكشف لحدّ الآن، ألانه اتجاه الإشارة على الفاعل؟..

.٨

عند ذلك قررت أن اشدّ حقيبة سفري عائدا إلى (شاكيا) لأثبّت ما دونته كموسيقى، من بعد أن قضيت وطرا كان لابد منه....

Saturday, March 07, 2009

فرنُ الخواجة

قد ابتعدُ سطرا واحدا عن (فرن الخواجة) وبضع كلمات، فأكتب في الصباح عن الصباح المشرق الجميل وهو يمشط شعره السبل الأسود كصبية عذبة الصوت، لان العصفور على الشجرة يطلّ على شباك الحمام، والموارب على الممرّ غير الوحيد لمدرسة الأطفال في حارة (حيفا) الموازية لدخلة حارة (صفد) وسوقه المختص بقضايا المرأة وملابسها العربية، فاطلّ كل صباح على غابة زنبق وياسمين رائعة.. كيف أضيّع هدفي وأباشر الغناء وحيدا.. كيف اهدل، ولا أنسى كم يبلغ بي النسيان ويحطني من جبل، إلى الأرض ليصدمني. لكني بالرغم من كل شيء انهض هاشّا، باشّا محوقلاً، ومبسملاً، ومسبحاً، ومثرثراً مع نفسي بلعنة الأيام، والدولة، والزمان، والتاريخ، والجغرافية، والوطنية.. حتى أصل درس الحياتية، فأقف لأعش حياتي، مع زوجي.. متنفسا الصعداء من أزمات مررنا بها، وخسارات في المال والعيال حامدين، وشاكرين على كل مكروه.. أيام أن أقف أمام الأشياء كلها ولا اعرفها، أو هي في الحق أكثر حميمة من السابق، فكل يوم اشتري من فرن الخواجة بخمس ليرات ثلاث أرغفة.. لأجدها أطيب ما في الكون من خبز، فالرجل عامل الفرن صار يعرفني، بضع خطوات ويختارني من بين الصف الطويل والانتظار شبه الممل ليصيح على:

- (أنت يا عراقي.. تعال.. هات خمستك وخذ خبزاتك)..

أجيبه ككل مرة (يسلموا مُعلم)..

فهو الوحيد الذي لا يضيف ليرة واحدة فوق ما يبيع كبقية إقرانه السوريين على العراقيين. كمثل قرينه بائع الجرائد. اخذ ككل يوم (جريدة تشرين) الغراء، ومن ثم اخذ الخبز اقضم منه وامضي للشقة المؤجرة الذي يعادل ثمن أجارها في الشهر الواحد حوالي ربع كلفة بناءها، اذهب سعيدا أعبّ الهواء، وإنا أتطلع بلا خوف لوجهات المحلات، وأتمنى بان أبقى أطول فترة في هذا المكان الشامي الجميل، أمدّ بفرسي التي تميدُ من تحت قدمي الأرض، وقد وصلت بي في الصباح وكان المدينة نائمة، نصف ساعة قبل الدوام تجد الشوارع لا تكف عن احتكاكها بالناس، وبعد الثامنة بخمس دقائق، تعود المدينة إلى صمتها، ولا تدري فيمن كانت تحتك، ولا تدري أين ذهب الناس من كل شوارعها..

المدينةٌ تريد المزيد من الليرات، وعليك أنت نسيان ليراتك التي تبتلعتها منك بيسر، الدنانير تتحول الى الدخان في الجيوب، (المصاري) أغلى ما الوجود، فلا احد يقدر عن انتزاعها من يديك سوى السوري الذي لا يستطع أخذها من السوري، فيا عيني عليك أن بانت لثغة العراقية؛ أن تدفع، وان تسكت.. وما عليك سوى أن تحرص من مواطنيك، ففيهم من يبيعك كحمل وديع مليء جيبه بالدولارات، الاغلب الأعم منهم يتخيل بان أمتعتك محشوة – إلوفاً- من فئة المائة دولار، وأنت حزين كسير لا تعرف كيف يطنّ الذباب حولك ويدعي

انه طيب القلب، فيسدي لك نصحاً. وهو سمسار ليل مستغل، ومستقتل من اجل ليرة زوئام..

اذهب إلى عمق الكلام وسيره الذي يملاني موسيقى وغرام، العمق المتين.. باحثا عن كلام آخر، وعن معاني جديدة، فاشتري ما استطيع إليه سبيلا، أذا ما أكلت وشربت فاني ما وصلت الشام أبدا، أكلها الغرّ يتوهني، فكل مرة أعبّ إلى بطني سندويجا طيّبا، وأي كان محتواه، فلن يكون متحديا لمظاهر الغباوة الكيلوسترولية. أسير مغنيا حيث أنا الخمسيني قاب قوسين من الهدم، احمل (موبايلي) كصبي في جيبي، ومنه إلى إذني وصلة سماعتين تغرقاني بالموسيقى المعشوقة، وكأني لا أجول في الشوارع المطمئنة؛ بل بالأودية وإعشابها، وجسدي مضمّخاً برائحة شامبو الغابات الاستوائية متناسيا الخمسين نجمة وهي تهمي من السماء كل يوم ألف مرة، فالموسيقى تطيرني فوق الغيوم، وأنا أعبّ النفس تلو الآخر غير مصدق باني حرّ. أعود كل لحظة للتأمل أرشرش (السلام عليكم).. كلما وجدت من يجلس إلى صاحبه، ويحكي له عن أمره، ظنا مني انه يتكلم في أمري..

ككل صباح أتناول الخبز الشامي الآلي الطيب، تارة مع اللبن، أو مع نوع من أنواع الجبن التي شاء لها الله من سلطان، وأنا اشكر لله بكرة وأصيلا.. وأفكر بكيفية ما سأحكيه لزوجتي. فكأني أقول لها، حدثني صاحبي زبون الفرن عن أشياء يحبها فينا نحن الإخوة، وكأنه يحدثني عن رجال القمر الذي اغتصبته عاصفة ترابية

وطمسته بصفارها المميت، ولكن بقيّ مشعّاً بأمل من كان يتحدى.. فذات صباح رأيت امرأة نزلت من التاكسي وأشارت صائحة بان الرجل الذي كان يقف خلفي بأنه؛ قبل عام قد اقتحم بيتها مع زمرة مسلحة تلبس لباس الشرطة.. اخذوا منها زوجها وتركوه جثة مرمية على كومة القمامة.. كيف تنساه؟

قد كان مختبئاً خلف ظهري، وبالرغم من صدمتي، ورعبي، وجزعي، وخنوعي إلا أني أمسكت به كما امسك به غيري. فصرخة المرأة تنجيها، وتجعلها سلطانة زمانها، وقالت جازمة ومتأكدة:

- لو كشفتم عن ساعده الأيمن لوجدتموه موشوماً بصورة عقرب.. فلن أنساه ما حييّت..

تبين (هو) فنقل إلى المخفر المسؤول عن حي اليرموك، ومن بعد أن تلقى لكمات وركلات أكثر من البصاق الذي نزل عليه، وبقيت تحدث الناس عما فعله معها بحرقة بكاء مذيب لأقسى الأحجار..

حيث تعاطفت كل رجال الحارة، معها، ووجدوه مذنبا، فاقتيد مخفوراً من مخفر إلى مخفر ثم طرد على الحدود.. هناك في (بغداد) زوجها قد مات.. أخذته موجة الموت العاصفة العاتية.. هذه المرأة كادت أن تقتلني بإصبعها إلا إنها كانت تعرف من أصابها بمقتل وهدمّ لها بيتها، ففي كوابيسي كأني كنت إنا المقصود، وكيف سأثبت للناس والعالمين باني لست قاتل زوجها، وباني لم احمل يوما سكينا حتى لأدافع عن نفسي... كنت أراه يتقنع بلسان غير لسانه، وهو المحترف

فكيف غطي نفسه، وبقيت أنا وحيدا ابتلع نفسي في الحلم من الخوف والقلق، وبقيت مسمّماً كأني أكلت مالا يؤكل، وبكل ما أوتيت من قوة، رحت احاول تفريغ مصاريني.. أوشكت أن اطرد أمعائي كلها.. فأية صرخة أظنها تقصدني والتفت مذعورا. لا استعيد لنفسي هدوئها الا بعد حين لاني صرت استجيبها من كل الناس، فأخاف من خوفي الذي جعلني ضئيلا إلى حدّ لا اصدق بان الكلمة مهما حوت من مجاز، لن تصوره... حيث امسكه، أوقفه، أبوح به.. عبر كلمات سأكتبها وأنا احلق وحيدا تاركا كل الأزمنة الخائبة تتفسخ براسي، وأن احتفي كلما مرت قربي ياسمينة شامية تفوح بعطرها فيجعلني أسير هوى طائش عابق برائحة المسك والعنبر ولا أجد ما يستحق الوقوف..

أسير وأسير في شوارع الشام مرفوع الرأس، متشهياً أن تعود إلي أيامي التي قدمت ضائعة، تائهه، متواصلة بالفشل الإقليمي، وتلت الفشل الذريع، وهو يتوالى منحدرا خلف كل خطوة أتابع بها النسائم وهنّ يتابعنّ مبتهجات، لا يدرينّ بان مؤخراتهن تضفي على خوفي البؤس، فيا لها من مشقة متابعة المؤخرات الفاتنات.. حيث يملئن البناطيل المزدحمة بارتجاج أشهى لحم عصيّ على التأثير في الذكورة.. فكنت كمن يركب نسمة ويحلق ورائها متأملا جمالها وهي تضحك لي من الخلف، ظنّا منها باني الوحيد من يتحدى الملل بقراءة هكذا جسد مغناج..

أكاد اهتبل من هكذا لكزّ صقيل، جذاب، مضيّع. ولأجل أن امشي حرّا فعلي أن لا افقد بوصلتي، ويكون فرن الخواجة نقطة عودتي حيث أجده مغلقا عند المساء قد امتثل كنقطة في آخر السطر من الدخلة المقابلة لسوق (لوبيا)، فاذهب حيث استأجرت، وحيث امتثل راكنا أمام التلفاز، كصبي مطيع، ومتحمل لآلام رقبتي ولأجعل نفسي تتابع ما تتابعه زوجتي الحبيبة عبر الفضائيات البائخة، حيث هي تقبض بإصبعها على (كنتروله)، كما تقبض علينا الأقنية الصادمة، فاجلب الأخبار لبيتها، وهي تقول لي من بعد ملل:

- (خذه واقلبه على القناة التي تريدها).

فاذهب بعيدا في المجال التتابعي حيث أريد كتابة ما أريده، ولكني لا استطع.. اللهجات تكاد تمرّ بأزمة حادة، فتخسر خصوصيتها، أرى إنها توحدت وصارت عبر قالب بنائي واحد، وليت عمود الفصيح هو ما يشدّ أزرها، لكن الدراما التلفازية، تفرض نفسها على الذهن.. فكيف نفلت؟.. كيف نسرد الكلمات لنظهرها أكثر حلاوة وتميزاً، وطازجة.. كيف نجعلها مرشرشة بعطر الوجوه المنيرة التي تطلقها، وكم تحيا الأغنيات لوحدها حين يحفظها الأطفال لتكون هي معيارا للنجاح، ولكن (الأباعر) لا يفهمون، فاللهجة سلاح تريد لك الخلاص من الكشف بأنك غريب، وخاصة لأنك غريب في مخيم (اليرموك) الفلسطيني فعليك أن تدفع زيادة في الليرات لحدّ الضعف، فسائق التاكسي (الشوفير)، دائما يتفق معك على عداد

ونصف إن لم يكن على (عدادين) أو أكثر، كذلك بائعة الجبن واللبن.. فليس لي الحق بان اصمت فـ(اليرموك ليست معركة التاريخ مع المطر) هكذا أقول لنفسي وإنا أتخطاها، امشي عبرها طولا وعرضا. فـ(اليرموك) حيّ كبير فيه الكثير من الأبنية العمودية، يحده من الغرب بلدة (الحجر الأسود) بحدود شارع ثلاثين، وشارع (فلسطين) من الشرق وهناك بلدة (يلدا)، وبلدة (ببيلا)، وبلدة (الحجيرة)، حي (السيدة)، وحي (جرمانا) أحياء يقطنها الغالبية الأعم من أهل فلسطين مواطني (غسان كنفاني)، (محمود درويش)، وبقية أسماء النضال اللامعة.. كما هناك في الارض المحتلة، بين قوسين وأكثر، فاي حزن اقليمي اصفر لا يفارق وطني، منذ الازل. أقول لنفسي بأن الدرويش الأخير اثنين وليس واحدا، الأول مناضلا ومقاوما والثاني الأروع ولأشمل من بعد أن انتبه بان القضية ليست قضية وطن واحد بل هي قضية أوطان، ومشاكل الوجود مع الموجود هو إن الإنسان الخبيث الذي يفرض رأيه مغطيا قضية الوطن بورق السليفون، (شكولاتة القضية المركزية المحورية). صرنا نشمّ رائحة القدس من (الغتر) ونحنّ إليها، ونخاف على عروسها الذهبية التي بذل الساسة الغالي والنفيس من اجل الظفر..

صرت أمشي في دخلتها الرائعة منتش، ومحدثا نفسي عن نفسي:

- بصبحك الجميل تسامرك عينيك المتجولة إلى ابعد نقطة تسمح بها الرؤية. فلا تسأل، فمن الصعب أن تجد من يدلك على طريق، يهابونك كغريب..

تمشي لوحدك تقطع الشارع إلى الضفة الأخرى لتصافح النرجس المبلل بالشفاه الحلوة لصبايا يرشن انوثتهن البديعة على خيوط الصباح ليعطينه جمالا لن يبلغه وحيداً.. يمتزن بجرأة عيون متفحصة طولا وعرضا.. تمشي من النجمة إلى النجمة، ومن وادي متعرج على بنطلون جينز حادّ القسمات والتفاصيل (يالله شو كبير).. بين كل (سوري) و(فلسطيني) في دمشق (عراقي او اكثر)، وكان البلد صار مقام البلد، وتشظت قضية المحور إلى توبة عربية بارقة، وصار الخضرجية والخبازون يمتهنون بيع الماء في حي النهرين.. اسوار الجامع الاموي العالية تعطي للحمام الزاجل امانه، والعين تعطي للاطفال الراكضين خلفه رسائلهم البريئة، وما أزاح من البارود العتيق، والحقد الأسود الذي هربهم طائفياً من زاجلهم الذي لم يكن مدجنا ذات يوم كما هو امامهم، فكأن مواطنيّ لا يعرفو سوى الأماكن التي يكثر فيها مواطنيهم، يلتفون حول بعضهم البعض ويحطون كالحمام قرب بعضهم البعض.. فساحة (صلاح الدين الايوبي) تسأله ان لا يخاف الوعد والأسى.. قلت لنفسي كم قضيت متمسخرا تدخن النارجيلة... تعرف ابن جلدتك وتبعيته وغلته.. فالاغلب الاعمّ باع بيته وخسر ما خسر وانفلت مع ذويه بحاثا؛ بالكاد عن استقرار نسبي، فـ(يا سلام سلم).. هكذا كنت اقول حتى لعامل

الفرن الذي لم اسأله أين درس الفلسفة التي اعشقها.. وهو يخبرني بان أبيه وصل مخيم اليرموك منذ أربعين عاما، وبعاش موطنا من الدرجة الثانية ويحق لهم مالا يحق لغيرهم من العرب بامتلاك أي عقار، كما يخدمون في العسكرية أيضا كمواطن ومكتوبا في الهوية سوري/ فلسطيني، ويقول ساخرا :- (محمود درويش)، لا يعرفه اغلب شباب الأرض المحتلة.. كما يقول أيضا بأنه يعمل مع (معمارجي) في العطل بعد دوامه في الفرن، وان المصاري التي يقبضها من المستأجرين العراقيين تذهب إلى حساب أمه في البنك، لأجل امتلاك بناية ثالثة، ولا يدري ما الذي سيفعله، فلقد تعودوا على التقتير، والشحّ فأنهم كبقية الناس يأكلون وجبتين في اليوم الواحد، وككل إخوته يعمل في مكانين في اليوم الواحد.. ويملكون نصف الحارة عندما يستغرق في سرد التفصيلات الأخرى.. وواصل يخبرني ضاحكا بان أخيه في التغريبية الفلسطينية صاحب الفرن، ذاته، ذات مرة أعجبه (سباط) من الدرجة الأولى، وقد تمكن منه من بعد عمل مضني زاد على الشهرين، واشتراه وجربه يوم جمعة في (جامع البشير) يبعد حوالي عشرين متر عن فرن الخواجة، وبعد الخطبة المعطرة لم يجد (سباطه)، وعدل عن الذهاب إلى هكذا مشاوير حتى موته.. لقد مات ندما بسبب ما سرق منه.. بقينا مبتسمين وبقي الهواء العليل يمرّ من شباكنا الاسفل، ليبدل ما أفسده الضحك من اوكسجين.. عائدين للسطر الاول المبلل بالندى..

٠٤ كانون الثاني، ١١

حديقةُ الكتب

(الايمان بحدوث الاعاجيب هو احساس ملازم لهؤلاء الذين يعيشون حالة الفرار واليأس والخوف، ولولا هذا الايمان لفقد الانسان قدرته على الاستمرار- ريمارك).

غالباً ما أجدهُ في حديقة الكتب، متفرساً في مساحة هوائها النظيف.. انظر اليه دائماً بوجل، وحبّ كبير. اجيدُ التمعن في احواله التي لم تعد بالنسبة لي غريبة. خصوصاً بعد ان اصبحت كاتباً مثله، وارغب في كل مرة ان اساله، احدثه عن مغامرات احلامي، وتجاربي الكتابية.

لكنه دائماً يمضي دوني عميقاً في شذى الورد، ويغوص بعيداً في جمهرة تلك الالوان التي تتنافس عليها العصافير، البلابل، الحساسين، القبرات، وبقية انواع الطيور التي تعرف الزقزقة كما الاغنيات. اسأل نفسي احياناً هل هو برجل من لحم ودم، ام انه ملاك حارس لهذه الحديقة الزاهية. منكب على الدوام في اسطر تلامع من ذاكرة كاتبيها، هو يفهم لغتهم، هو يعرف معاني هذا الكورال الرخيم، انه يسمع سمفونية الحديقة.

اكاد اراه بين كل ذلك الخضم، وبودي ان اسأله، متى تنتبه لي يا عم "انور"، متى ستعرف كم انا قريب منك، وانا اودّ منك ان تعلمني درس القراءة في تلك المتون، الاهم من درس الكتابة، اذ هي انعكاس لما نقراه، هل تعرف بان جدنا "دستويفسكي" قد وقف امام

فرقة الاعدام، وكان تاركاً في زنزانته مجموعة من الكتب التي لم يقرأها وكانت احدى امانيه ان يمنح فرصة لقراءتها، وقد تحققت امنيته بعد ان شمله العفو الاميري، وعاد الى ثكنته ليقرأ بضراوة اكبر؟..

كأني اسرقهُ من مكانه، عالمه، تاريخه، ومن حديقته البهيجة.. بهذا العالم الافتراضي، اعيد تشكيله واجعله قريبا مني. انا احبه جداً، كأنما استحضره لاقتطع معه وقتاً من عمرنا المهدور ونقرأ ما فاتنا.

- "صدقني يا عم "انور" أعمارنا هدرتها الصراعات الإقليمية البغيضة، يوم جعلوا انسانها اداة حرب بالإنابة".

أعودُ الى حديقة الكتب، اشمُّ شذاها، يجعلني ذلك الحلم ان اعيش حياتي الحرة التي استطيع بعدها ان اكتب على الحاسب عند عودة تيار الكهرباء، ولا افترض ان كانت تغادرني الصورة ابداً، فانا اركض خلفها في حقول مكتبتي المزهرة، تلك التي لم تحوِ برغم مساحتها الشاسعة مثل حديقتك الزاهية..

امعن النظر في صورته الجميلة، وجه طيب الملامح، دقيق الاسارير، صاحب نظرة ثاقبة. اراه يتلفت في حديقته، كانه احس باني بالقرب منه، كنت قد عرفت بانه يستعد مثل كل مرة للقراءة..

كأني كنت اصاحبه في كل ما يقرأ...

- رواية "الشياطين"؛ يا "عم" اتعلم اني قد عثرت قبل ايام مصادفة على نسخة منها جعلتني نادماً على عدم قراءتي لها ايام كنت صغيراً. لعلها كانت قد غيرت مسارات، واحدثت انعطافات مهمة في حياتي..

كأنما مؤلفها يكشف لي اليوم عن خريطة الافكار الشيطانية البشرية، المتداخلة، والمتوارية، وكيف يتلبس السياسي مشروعه الثقافي بحجة انه يدافع- في حين انه- في موقف المحارب، يكذب كانه الصادق من اجل الحقيقة، يندس من اجل ان يدسّ، ويسمم الافكار، ويعيث بالأنظمة الاجتماعية فساداً، فيقول "نعم" مجبراً، ويسوّفها حتى تصبح "لا". عظمة هذه الرواية الخالدة ان يقرأها بجدية مثقف اليوم حتى يتخلص من انتهازية السياسي الذي فضحته عبقرية "دستويفسكي".

كنت احسني قريباً منه لا شعر بحنوّ الابوة، وليس معزولا عني، فلم يكن ذلك العزل باختيار كلّ منا، اذ تفصلنا عن بعض مسافة هائلة قد تزيد على الاربعمئة فرسخ، بالرغم من ذلك اكاد اراه بصورة جلية، واتابعه عن كثب وبدقة متناهية.

ذلك الابتعاد عنه وفرة عزلة قصية، صارت بيننا فاصلاً آنياً، وصرت برغم البعد؛ اراه الآن يستعد لطقس القراءة المقدس.. له جملة من الاستعدادات، فهو يلمّ نفسه، وينزوي مثل كل مرة مع كتاب في

نهار مفعم بالسحر، والحيوية. كما اتابعه كيف يعد العدّة لدرس الكتابة، أيضاً، كانه يصغي الى موسيقى غريبة تجول في ذهنه، يخرج قلمه الرصاص، ويبدأ بخطوط طويلة عريضة كأنما يرسم، فاسمع حفيف القلم على الورق، وانا اتشوق الى ما دونه بكل تلك السرعة. يجعلني اسال نفسي هل كتبها ام بالأصل كان يحفظها، وملي على نفسه من الذاكرة. اجده اليوم قد ترك عادته بالاحتفاظ بعلبة مليئة بطوابع البريد، فهو لم يشتر حتى ورق رسائل انيقة، كما كان في السابق. زمنٌ قد تغير، حضره الانترنيت، صار فيه العم "أنور" يرسل رسائله عبر البريد الالكتروني، كمن يطلق حمامه لتعود له بالأخبار السعيدة. يرسل ما كتبه بعد ان يطلب من احد ابنائه يساعده في كيفية تحميل هذه الاوراق التي دونها الى الحاسب، ليتسنى ارسالها عبر الانترنيت بعد ذلك. ويبقى حريصا على لمة الورق التي تبقى بين يديه، ثم يعاود ليصحح بدقة ما فات من انامل الابن..

"اياك ان تغفل لي حرفاً فيتغير المعنى، ربما الخطأ مني يظنون به صحيحاً كوني الدارس المتخصص في المعهد العالي لأعداد المعلمين".. يتابع بنفسه المكتوب بواسطة الحاسب.. "حرفاً حرف"، ويتأكد للمرة المتكررة، حتى يرسله، الى النشر..

بعد حين اراه في دقة بالغة يستخرج رزمة الصحف، ويفترشها بعد ان يقرا كل ما فيها من موضوعات، ثم يعزل ما يراه منها مناسبا، وبعدها لا يتركها؛ الا وذهب بها الى مكتب الاستنساخ،

لينسخ منها عدة نسخ، ويغلفها، ثم يحملها مرة اخرى عبر البريد العادي الى اصدقائه في شتات الغربة، وتعود عليه حمامات الرسائل بأجمل سلام.

كالعادة يتكور على الاريكة في وضع ثابت، جاعلا الضوء يتسرب من النافذة التي خلفه على وجه الورق، والاجمل باني اراه منبسط الاسارير كلما يبتدئ القراءة، انفاسه تهدر باتزان، واصابعه ايضاً هي الاخرى تلتم على اطراف الكتاب، فأقول لنفسي انه بدأ يحلم. يتوحد مع كلمات كتاب لا يفارق يديه، اراه ممسكاً طيات الكتاب وحاشراً اصبعه، ويذهب عميقاً في تواصل الكلمات. بالكاد يتحرك فوق الاريكة المريحة، الا من اجل ان يتحول الى بلاط الارض بحثا عن برودة نشيّة في صيف يشح فيه الهواء البارد، باحثاً عن نسمة باردة من ملامسة الارض تقلل من مناخنا المحتدم.

كونه أنموذج كبير، افتقده منذ كنت ولداً صغيراً. انموذج كنت اتمناه ان يكون قريباً مني، وجوده في مرمى بصري يعلمني الكثير. كنت احتفي بالرجل الكاتب العملاق، وهو ينشر في اهم الصحف التي تصل الي واستمتع بقراءة صفحاتها الادبية.

فكان افتقادي اليه، معوضاً بالافتراض. انه افتقاد كبير خلفهُ محيطي الذي خليّ من رجل مثله، حياتي كانت خالية من معلم يرشدني الى كيفية امثل السبل الى القراءة. كم كنت وحيداً وانا اتعثر في قراءة العشرات من الكتب التي كانت فارغة مما اريد. كنت

اعرف بان الرجل الكاتب خبيراً بمثل تلك الكتب، ولعله يوماً سوف يختصر لي المسافة الى الكتب الجيدة.

لم يكن يفكر في كيفية جلوسه، يكاد ينسى كل ما حوله، ويذهب حيث سطور الكتاب اراه يدخل بين طيات الكتاب، كمن يدخل الى غرفة ويغلق بابها عليه. تارة اسمعه في الداخل يضحك عميقاً مع كائنات لا اعرفها، اظنها جنيات شفيفة تخرج اليه من طيات الكتاب.

كنت اراه، واتابع حركاته اثناء القراءة، يصبح في بعد اخر عني كلما استغرق في قراءته. اتحسس انتظام أنفاسه، وكانه يتحول الى كائن اثيري، ويطير وراء الكلمات. انه الرجل الحق الذي لن تغمض له عين. يحلق وراء كلماته، وراء الصور التي في داخل الكلمات، وكان دائماً في درسه الذي يعطيه لي بانه، يرى الكلمة المشحونة معنى، انه الذي يفصل بين كلمات العاشق الذي يكتب عشقه. اذ يجترح البلبل الحبيس حلماً في يقظته، ربما يكون ذلك بكيفية حريته خارج قفص الانسان، وذلك لا يزيد عن التجوال بين ايك الاغصان، او حياكة عش هانئ، تضع له انثاه بضع بيضات يدفئهما حتى موسم التفقيس الجميل، ويحاكيه انغاماً شجية لمن حوله بأجمل الوقفات. فيلتقطها..

كنت شديد الملاحظة، معه، وكنت ارقب الدفاتر الكثيرة المصفوفة قرب راسه، واترقب الفرصة المناسبة لانقض عليها فأقرا ما استطيع منها.. اكتشفت بان اوصاف الرجال الذين يكتب عنهم غالباً

ما يصفهم بسرد، وكانه يعطي صورة واضحة حتى يعلقوا في الذاكرة، اوصافه لهم لا يجعلهم اشخاصاً عابرين. يسرد بذائقة عجيبة، يسرد وكانه ينحتهم من الصخر كما يفعل "مايكل انجلو"، ويقول هم "بالأصل موجودين وانا ازيح الغبار عنهم"..

لا اعرف من اين يأتي بتلك الكلمات، كنت اراه يغترف من تلك المخيلة العميقة كبئر، فقد قرأ كثيراً، ومرن سرديتهُ على الوصف، لقد حول قلمه الى الة تصوير دقيقة. اراه ينهمك في البحث عن تفاصيل تعلق في الذاكرة، ولا تغادرها.

كنت ارى له طبائع لم يلحظها احد غيري. احيانا لا ينام، يكتب في الليل دون ضوء، لقد عود يديه على ذلك. نور العقل يرسل الى اصابعه واصبعه ترسم. كثيراً ما وصف امرأة، بعدة صفات، والبسها عشرات الاثواب، وراح يرسمها بعشرات الالوان، ونسي بانه يكشف عن امرأة واحدة، قد ملات له لبّه. يراها، ويطارد شبيهاتها في الكتب التي يقرا فيها. المرأة راحت تنهض من سطوره، جميلة، مثقفة، تناقشه فيما يحلم، وما يخطط لكتابته..

يحب كثيراً الحديث عن الكتاب الذين تعلم منهم، وغالباً ما يفيض بإسهابٍ عنهم.. يتابع سيرهم، ويقرأها، وغالباً ما يؤكد بان كتب السيرة تعلم الكثير، مثلما كتبهم، فالرجل اي رجل مليء بفيض عقلي فانه دون ما شك يعطي مما يفيض..

مرة قلت له باني أحب كل ما كتبه العظيم "فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي" (١٨٢١ - ١٨٨١)، وسالته هل قراته بطريقة اخرى غير طرقنا التقليدية. نحن لم نجرب طرقاً مضمرة، تجعلنا نكتشف الانسان الذي امامنا بالإنسان المخبوء تحت جلدنا، ولم نستخرج تلك الجواهر من ذلك البئر العميق الذي اسمه عقلنا الباطن، كان علينا ان ندقق جيداً في ذلك العمق السحيق من العمق البشري.. كما كان يفعل "جدنا" ويلبسه اسماء ابطاله، فكان متصالحاً الى درجة كبيرة مع نفسه بحيث يرى كل هذا العمق البشري مكشوفاً امامه. كل أولئك الابطال الذين باتوا رموزاً، لهم صوراً معكوسة في ذلك العمق السحيق. يعرف كيف يستخرج كل تلك الاشياء، يعرف مقارنتها، يعرف كيفية تدوينها.

حاولت ان أستفز فيه القارئ الماهر المخبوء فيه، فعرفت عمق حبه للمؤلف العظيم. وجدته يجيب على الفور "كيف لا اعرفه، وقد اطلعت على الكثير من اعماله وأصبحت افكارها وشخصياتها جزءا من تراث البشرية الروحي. تعد رواياته هي الاثمن ما في تراث الرواية العالمية".

كم كنتُ اتمنى ان ينسى ذلك السؤال الذي حفر فيه عميقاً، وقد مضي الى قلمه يكتب عن روايتا "الجريمة والعقاب"، و"الاخوة كارامازوف" اللتان عبرتا بأكمل نضجٍ عن فلسفة الكاتب الحق".

اضافة الى "رواياته الأخرى "مذلون ومهانون" و"الابله"، و"المراهق" فهي كتب عظيمة" ايضاً.

كانه بقي يقول: "لقد كان المؤلف إنسانا ابيّا وعنيداً في الدفاع عن معتقداته، وقد ترك ذلك كل بصماته بنتاجه العظيم"..

- "ليتني اشترك معه في صفات كثيرة"!!

"ولد في ١١ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٨٢١ بموسكو في اسرة طبيب عسكري ينحدر من فئة رجال الدين منح لقاء استقامته في الخدمة لقب نبيل. كانت امه تنتمي إلى فئة التجار. لم تتآلف مع زوجها، اذ كان رجلا صعب الطباع، وعلاوة على ذلك كان مريضاً بالصرع الذي انتقل بالوراثة إلى ابنه. اما امه فزرعت فيه المشاعر الدينية العميقة. منذ صباه ولع الرجل بميول التمرد وانبهر بالطموحات المثالية للكاتب الألماني "شيلر"، واغرم بروايات " تشارلز ديكنز" الذي كان يجيد اثارة العطف على الناس المهانين. وكانت قريبة إلى نفسه تكشف التناقضات الاجتماعية في أعمال "بلزاك" الذي ترجم بنفسه من الفرنسية الى الروسية رواية "أوجيني غراندي" قبل عامين من اصداره لأول عمل ادبي هو رواية "الفقراء" عام ١٨٤٦ التي نشرت في مجلة (المعاصر)، واقبل عليها القراء".

بقيّ العم "انور" ينهمر في كلمات موصولة بمخارج كلمات واثقة، وكأنه وجد ما يريد اقناعي به...

- "تخرج من كلية الهندسة، جامعة "طرسبور" لكنه لم يلتحق بالوظيفة، إذ لمس في نفسه انه اديب بالفطرة، وتعرف بالناقد الروسي البارز "بيلينسكي" الذي كان يتزعم كوكبة من الادباء الشبان من انصار ما يسمى بـ "المدرسة الطبيعية".
- "ذكر في رواية "الفقراء قصة حبه الاول، اذ كان يريد كتابة وجه حبيبته ليمكن القراء من فهمها"...
- "انضم إلى حلقة "زملاء بيتراشيفسكي" الذين اسسوا جماعة شبه سرية. وتمكنت الشرطة من تتبع الجماعة حتى القت القبض عليهم في ربيع عام ١٨٤٩م، وحكم عليه بالإعدام، وخفف الحكم في اللحظات الاخيرة نفيّ الى "سيبيريا" ثم وصف هذا المشهد المؤثر في روايته "الابله". كذلك دقته في وصف حكم الاشغال الشاقة في كتابه "ذكريات من منزل الاموات".

ارتفع صوته وراح الى رزمة اوراق كانت بين يديه، وكانه لوح بها مدافعا عن تلك المرأة..

- "اردت القول بان كل نساء الكاتب هنّ امرأة واحدة غالبا تتغير صورهن ولكنهن في الاخير صورة واحدة قد خرجت من ذهن الكاتب.. هي صورة امرأة مازال يحبها"..

ثم واصل القول:

- "ولعه بلعب القمار جعله يواجه دوماً حاجة ماسة إلى الاموال، واضطره إلى عقد صفقات غير عادلة مع اصحاب النشر لإصدار رواياته بأثمان بخسة. وربما كان معرضاً دائماً لخسارة طباعة حقوق مؤلفاته. خصوصاً مع روايته الشهيرة "الجريمة والعقاب"، ولكن كاتبة "اختزال" شابة جميلة اسمها "آنا سنيتكينا" التي تزوجها فيما بعد. انقذته من استغلال الناشرين. واعادت اصدار "الشياطين" التي كتبها عام ١٨٧٢ في طبعة جديدة، ثم نشرت له رواية "المراهق" التي كتبها عام ١٨٧٥، ولم يغبن حقه في اعظم رواية على الاطلاق "الاخوة كارامازوف" عام ١٨٨٠. لقد قضي اغلب سني نتاجه العظيم تحت وطأة جشع الناشرين، وابتلاعهم كافة حقوقه. اذ قامت بعد زواجه منها بتسيير الامور المالية له، ودافعت بشراسة عن حقوقه لدى نشر روايته الجديدة مما ساعده في الحصول على مبلغ لا بأس به مقابل عمله الادبي. وتعهد لها مقابل ذلك ان يتخلى عن القمار نهائيا، ودون ان يستطع أن يفي بعهده، وكم كان وصفه دقيقاً لذلك المرض في رواية "المقامر" التي صدرت عام ١٨٦٦م".

واصل العم "انور" قائلاً: "الكاتب عندنا هو الذي يختزل كتابته بنفسه"!!..

كأنما سألته كيف يكتب الكاتب، ثم يختزل له احد غير. فقال:

- " نعم.. هناك الكثير مما تفيض به المخيلة لتصبح عبئاً ثقيلا على المؤلف نفسه، فالكاتب الحق يريد ان يصل بالقارئ الى ما يريده عبر خط مستقيم"..

- "لقد اعطى "تشيخوف" صلاحيات الى امرأة عيَّنَها مختزلة لكتاباته حتى تأخذ منه كل ما يكتبه، وتساعده في انقاذ مسوداته من الاختزال الشديد الذي غالبا ما كان يقوم به بنفسه، قبل ان تؤول الى العدم اذ وجد نفسه يُدمر اغلب ما يكتبه"..

"يقع حيف كبير على كل كتاب منا عندما ننجز كتاباً بعد سهر الليالي، وتعب متواصل، واعياء وارهاق، ومن ثم نذهب بها الى دار النشر العربية وندفع مالا لأجل ان ينشر"؟..

- "الناشرون على الدوام لا يعرفون الا لغة المال، وهم في اغلب الاحيان لا يدققون فيما ينشرونه، همهم المال ولا غير"

بقيت اتابعه اثناء ليل طويل، تتنقل اصابعه متحسسة حواف الكتب المتراصة في مكتبته، كنت اراها وكأنها ليست غريبة علي، كأنها كتبي، المرصوفة كما رصفتها، وهو امامي يقودني كانه يعلمني ماذا ينبغي علي اعادة قراءته، بقي العم "انور" يدلني، وكنت احاول ان اسبقه فامسح له الكتب التي تمر عليها اناملة الطيبة..

"اتعامل مع الكتب كأنما اتعامل مع كائنات حية، فمن حقها علينا ان نزيح عنها الغبار لتتنفس، انها تستحق منا العناية وان لا نهملها كثيرا ترزح تحت موجات الغبار، ومن الغريب باني اتي على بعض الكتب لأمسحها فأجدنني اعيد القراءة بها، ثمة كتب تجذبني لأرفع عنها غبارها، اجدني معتنياً بها اكثر من غيرها، ككائنات وديعة، واليفة. تلك الكتب اعهدها تتطابق مع ذلك الكائن الذي في داخلي مطالباً بالارتواء، يريد القراءة المتجددة، انه يعرف باني اودّ ان اقرا كل يوم بطريقة متجددة"

لم اكن نائماً بل وجدتني اسمعه كأنما يواصل القول لي، كان صوته صافياً يصلني وانا مغمض لعيني، واتبصر قامته الفرعة بكل وضوح:

- "كم انت مقصر معي عندما لا ترد على رسائلي فقررت ان احضر اليك في حلمك"..

واوصاني ان اكتب اليه:

- "ما ان تكتب على الظرف "انور عبد العزيز[١٥]" فان الرسالة تصل بريديا حتى باب بيتي".

وجدته يؤكد قبل ان يغادرني، وانا في غمرة نعاسي:

---

[١٥] * الأستاذ "انور عبد العزيز" أحد الاعلام البارزة في الأدب العراقي الحديث تولد الموصل عام ١٩٣٥م، توفي ٢٠١٣م

- "الموصل مدينة متحضرة، قديمة، وراسخة بتحضرها، وان اغلب سكانها معنيون بالمدنيّة.. متواصلون وسباقون عليها".

كنت ارى الحمام يعود سريعاً، وهو يحمل لي منه، عشرات المغلفات البريدية، المليئة بشتلات زهور تفتخر بها حديقتي.

8/6/13 بعقوبة

الغافلون

.١

لم يستطع احد على وصف ذلك الوحش الكاسر الذي باغت الأرض فسلبها سكينتها واستقرارها، ودمر ما عليها بعصفه العات. اذ اطلق صرخة مدوية هزّت الأرض بقوة، كشفت عن ضراوة قوته التدميرية البالغة. وخلف بفعله العاصف هلعاً في قلوب الناس الآمنة، لن ينسى بعد أن هزم ارواحاً بريئة شر هزيمة. كأنما تصير بهيئة دخانية اتخذت شكل غول يصل بطوله الى السماء، حاصداً بحركته السريعة اغلب ارواح الغافلين..

.٢

حدث ذلك في تمام الساعة السابعة الا ربعا من مساء يوم الأربعاء. عندما اتصلت الشرطة بمختار المنطقة، ليخبروه "إنفجاراً قوياً وشيكاً متوقعاً.. سوف يحدث في منطقته"، وطلبت منه ان يحذر الناس من كارثة وشيكة الوقوع، كأنما في بقية تلك الدقائق القليلة ما يكفي لتجنبها!. فلم يكن للرجل الذي لم يبلغ الستين من عمره من متسع ليمرّ على جميع اماكن تجمعات الشباب ليخبرهم، ويحذرهم كي يتفرقوا، ويعودوا الى مساكنهم، تفادياً باقل عدد من الخسائر. لكن الدقائق العشر كانت غير كافية على امتداد شارع يبلغ طوله اكثر من

مئتي متر. حيث راحت الدقائق تنفرط بسرعة بالغة، فالشارع فيه اكثر من نقطة وقوف يجتمع حولها الناس، اغلبها محلات لبيع المواد المنزلية والغذائية، ومطاعم للأكلات الخفيفة، مرطبات، "ذرة ولب زهرة عباد الشمس"، اضافة الى صيدليتين وبضعة محلات لبيع لزوميات الأجهزة الكهربائية، وثمة محل جديد افتتح حديثاً فيه تنزيلات ملابس اغلبها بضاعة تركية بنصف السعر، ومكتب دلالية يجلس على دكته مجموعة من المتقاعدين، بجانبها بضعة محلات أخرى احداها مكتبة لبيع القرطاسية، وبجانبها اسكافي، ومحل اخر يبيع افلام والعاب الفيديو. اضافة الى محل جديد بيع لحم الدجاج المشوي. التقى قربه جوقة من الأولاد الذين كانوا يتمشون مع اقرانهم.. يدورون مجموعات راجلة جيئة وذهاباً في ذلك الشارع الوحيد.. قال جاري ابو "شهد" بان زوجته اخبرته قبل تسعة دقائق من الانفجار بان مجموعة من الجنود بأمرة "نقيب" ترجلوا من سيارتهم الحكومية، ودخل ضابطهم الى الصيدلية التي كانوا يشترون بعضاً مما يحتاجونه من أدوية، فسأل الصيدلي بارتباك واضح عن دواء كأنما يكشو من رشح غير واضح عليه، وترك الصيدلي يحضر العقار الذي يريد. "لم يكن الضابط يضع على راسه قبعة كما مجموعته المتأهبة واصابعها على الزناد. واصلت تخبرنا عن سنه في "العشرينيات من عمره"، اذ هو يصغر ابن اختها الذي يبلغ الثلاثين ويحمل نفس الرتبة، "ذلك الشاب ذو الوجه الأسمر الجهم، حيث بدى لها انه اصغر بكثير من الرتبة التي يحملها على كتفيه". لكنه ترك

الدواء دون ان يعبأ به، أو ينظر إليه حتى، وخرج مفتعلاً الابتسام، ثم صعد الضابط الى السيارة المستعدة للانطلاق، ثم تبعته مجموعة الجنود التي بصحبته، وكان القلق بادياً في تصرفاتهم، دون ما سبب، ثم انطلقوا بعجل، وبتهور بالغ. ونظراتهم مصوبة باتجاه مطعم الدجاج، وكأنهم على يقين ما سيحدث هناك. "كأنما ملك الموت وجد لنفسه مكاناً ليصطف فيه بغية حصد اكبر عدد من الارواح".. قبل ثمانية دقائق من الانفجار أوقف "مهدي" دراجته الجديدة التي اشتراها له والده بعد نجاحه الى الاول متوسط، قرب المحل الجديد الذي يبيع لحم الدجاج المشوي بـ"خمسة الاف للدجاجة المشوية، اضافة الى صحن مقبلات تضمنت القليل من الطرشي والحمص الممزوج بزيت السمسم. منفذاً لرغبة أمه لشراء واحدة تضعها على مائدة العشاء التي قد تحضرها اخته المتزوجة حديثاً من ابن عمها، وكان "مهدي" قد غسل دراجته الهوائية جيداً، ومثل كل مرة عصراً. "قبل سبعة دقائق من الانفجار وصل "مصدق" عند بائع الملابس الجديد، والذي يجاور مطعم بائع الدجاج، ليختار له قميصاً يشبه القميص الذي كان صديقه قد اشتراه قبل اكثر من ساعة من المحل نفسه، اذ وجد ثمنه مناسباً لقميص في غاية الاناقة، ولونه قد اعجبه فصمم على شراء مثله". -"بعد ان صحبهُ صديقه "عمر جليل" الذي واصل طريقه الى فرن الصمون ليجلب لبيته بضعة ارغفة طازجة لمائدة العشاء"..

"قبل ستة دقائق من الانفجار بينما "ابو حمزة" عائداً من عمله في بعقوبة التقاه جاره "خليل" عند نقطة صارت امام بائع الملابس الجديدة، وعاتبه "خليل الكهربائي" على وقاحة ابنه الذي لم يمتثل الى رجائه، ونقل له كل ما دار بينهما من كلام، ووعده الرجل خيراً وعلى ان يقوم بتسوية الخلاف الذي بينهما، ولا يريد الا ما يليق بالجار الطيب"..

قبل خمسة دقائق من الانفجار كان "حمدي" ابو عكازة ماراً من هناك، وهو في السابق كان قد فقد احدى رجليه في انفجار صادفه عندما كان ساكناً في مدينة اخرى، ولأنه يحمل عكازته على دراجته سمي بذلك، اسند دراجته على رجله الوحيدة ثم توقف لأجل ان يرد على مكالمة وردته من ابنته.. "اوشك ان يسقط منه كيس الصمون، بسبب دراجة يقودها طفل في الثامنة من عمره لم يتعود السيطرة عليها، فاضطرر الى التوقف سامحاً له بالمرور"، وقبل اربع دقائق من الانفجار اصرت "نور" ذات الربيع الرابع على صحبة شقيقها "عمران" في ربيعه الثامن بعد ان اذن لهما والدهما في الذهاب لاختيار "سي دي العاب" من المحل القريب الذي يثير الاطفال بكثرة ما يجدونه من العاب يعشقونها، وكان بجانب المطعم ببضعة خطوات..

- "كنت ارى الجميع يتوافدون، يلتقون، ويتفرقون، حول محور طريق عام"..

قبل ثلاث دقائق من الانفجار تعودت "مريم" ان تمر على زوجها الذي يدير الفرن وتأخذ منه ما تحتاجه من الخبز، وكانت ترتجي ان تشتري علبة حليب لابنتها الصغيرة التي تركتها نائمة مع شقيقتها "دالية" في شقتها الكائنة في الطابق الثالث من العمارة القريبة.

"قبل دقيقتين من الانفجار اوشك المختار ان يصل الى ذلك المكان، الا ان ام "محمد" اخرته ان يعطيها تأييد سكن، فأخذت الدقائق الثلاث الاخيرة من دقائقه العشرة".. اما "قبل دقيقة من الانفجار.. نزلت عائلة مكونة من ام بلغت منتصف الاربعينات بصحبة اربع من بناتها، لعلها كانت عائدة من زيارة لها في بيت اهلها، ويتراوح اعمار بناتها ما بين العشرين والعاشرة. وتوجهوا الى بيتهم".. قبل نصف دقيقة من الانفجار.. توافدت جوقة من الأولاد تراوحت اعمارهم ما بين الخامسة عشرة، يقودهم ولد يحمل "لابتوب"، وكان متأكداً ومتحدياً لهم بمعرفته حيث بدى كالمنتصر محدداً سبب عطلها انه نقص في برنامج اللعب.. وصلوا جميعهم الى محل بائع "السي دي" الذي غالباً ما كانوا يجدون عنده اغلب الاجوبة، لما يواجهون من عقبات، ويحلها لهم شفوياً. و"قبل ربع دقيقة من الانفجار.. اوشك "حيدر" ان يتحرك بسيارته عائداً من يوم لم يكسب فيه أجرة يوم تكفيه"، و"قبل ثواني من الانفجار صاح المؤذن "الله اكبر"، كانت تربض كالنمر الأرقط منتصبة بطولها الناعم سيارة حمل نوع "كيا بنكو" زرقاء اللون، على جانب الطريق

امام مطعم الدجاج، كانت منزلة النوافذ، وترك فيها الراديو مشغولاً، كأنما صاحبها سيعود اليها لينطلق الى اصحابه الجوعى.. قال يومها "هاشم" ان صاحب السيارة المزعوم قد اوصى صاحب المطعم "اربعة دجاجات سفري"، وطلب منه ان لا يضع الصمون مع الدجاج، لانهم كانوا يرغبون بالخبر. فصار نثار دم نزل من السماء مع صدى الدوي المهيب الذي ارتجت له الجدران، ولم يبق حائط قريب او بعيد الا وقد مسه لهب ازرق غامق، وصل الى ابعد مكان. وقد صارت غمرة غبار مقيتة، عتمت على ملك الموت السريع الذي اجهز على الارواح المختارة بعشوائية في لمح الثانية، ومن افلت منه بقي لا يعرف كيف يتفقد نفسه. الحفرة العميقة التي تجاوز عقهما ثلاثة امتار، وعرضها اربعة كأنها نقطة على الارض وارادت ان تبتلع العالم..

٣.

سيارة حمل مليئة بالمتفجرات احدثت حفرة مساحتها تفوق على المترين، وبلهب عاصف وصل دماره الى اكثر من عشرين متراً مربعاً، واضراراً جسيمة في الممتلكات، وحصد اكثر من عشرين روحاً، واكثر من خمسين جريحاً، ولم تسلم حتى زجاج النوافذ من الارتجاج القوي. "سلاح معروف في عمليات الاغتيال وفي العمليات الإرهابية وحرب العصابات إما لقتل شخص في العجلة المستهدفة أو

الأشخاص حول موقع الانفجار أو تدمير المباني المجاورة لموقع الانفجار". في السابق كانت أول محاولة تفجير بواسطة عجلة مفخخة لتنفيذ مراد سياسي اثناء محاولة اغتيال "السلطان العثماني عبد الحميد الثاني" عام ١٩٠٥ على يد الانفصاليين الأرمن. وبعدها توالت العديد من عمليات الاستهداف بالعجلات المفخخة".

بات الكل منا مقصود في هذه الجريمة التي ارادت اكبر عدد من الناس. فخلف "عدد القتلى (٢٩) شخصاً اغلبهم من الاطفال الذين تراوحت اعمارهم ما بين ١٢-٢٠ عام/ عدد الجرحى (٦٤) شخصاً من كافة الاعمار/ المحلات التالفة (١٢) محل منها (٦) تساوت مع الارض/ الممتلكات الاخرى (٤) سيارات بينها ٣ سيارات اجرة/ البيوت التي تهشم زجاجها (٣٢) بالكامل".

٤.

"لم تمض دقيقة واحدة حتى وصلت سيارات الشرطة واخذت تطلق النار عشوائياً في كل الاتجاهات، باضطراب وهوس خوف مريب، واصاب رصاصهم بعض الجدران التي لم يصبها نثار شظايا الانفجار. كما انطلقت من افواههم شتائم نابية، وانطلق من شذرات اعينهم قسوة اذلال مقيت.. واخذت تعتقل الشباب الاحياء دون اعتبار، كشهود، او كمتهمين لانهم كانوا قريبين من المكان المنكوب".

.٥

"دون خوف من انفجار آخر، هبَّ العشرات من الشبان لتجمع اللحم البشري الذي تطاير الى نتف صغيرة في اكياس صغيرة. اجزاء جثث ضاعت بقاياها، ملأت الاكياس المعدة لجمع النفايات، حيث اختلطت في داخلها الاعضاء النازفة بالمحروقة"

.٦

بقيّ المتحكم بالوحش الكاسر حراً طليقاً يلحق الاضرار بكل غافل من الناس دون ان تأخذه اية شفقة!..

23-Sep-13

ربيبة السيد المسؤول

بيضاءُ، بيضاءٌ كالثلج، بليغةٌ الأنوثة، ضامرةٌ الخصر، هيفاءٌ القدّ، ذاتُ عينين واسعتين، ونجلاوتين بحدّة عالية، تشعان بلمعة ذكية كعيني قطة كأنهما تنيران أية ظلمة. يصعد الدم إلى وجهي كلما كانت تقترب مني.. يفور في ذلك الذي أجهله، يضغطني فلا أحتمل، فأقترب منها أيضاً، مقاوماً كل ما يخيفني، فقد أشاعوا يومها بان احد مسئولي الدولة الكبار آنذاك، كانت علاقته بأمها جد وطيدة، وقد عين من بين الطلبة لمتابعتها، وكنت دائما أتحاش الاقتراب منها، ليس لأني ممتلئ من قصص الرعب التي سمعتها، عن ذلك المسئول الذي وصفوه بأخطر الإمراض السايكوباثية، وكنا نعرف بان يغار عليها كما يغار على أمها، وصرنا نهابها أكثر مما نهابه، كنت أرى بان الاقتراب منها بأي شكل من الإشكال يتركب عليه عواقب وخيمة لا يمكن تفاديها، فكنت دائما اهرب منها، أو التقرب منها رغم أن ترتيب اسمها الأبجدي يجعلها دائما بجانبي، كنت أرى فيها أنوثة طاغية، وأحاول عدم مسّ أصابعها كلما اشتركنا في تمرين (المختبر)، تتعمد الدنوّ فوق رأسي، وتسقط زفيرها في رقبتي، لانتفض ارتجافاً، أراها تتعمد أن تلامسني، فأخاف من احتكاك حلمتيها الجريئتين، بيّ، وغالبا ما استرق النظر إلى فتحة قميصها خافيا شبقا دفينا بين عينين مفتوحتين خجولتين، فأجن.. إذ غالبا ما تسرحان جريا في هضاب مفرقها المرمري الذي تتيه فيه أذكى العيون..

يومها كانت تدرك باني اضطرب كلما اقتربت مني، وتهدر بي عاصفة تهدني هدّا عنيفا، فتختلط في فمي كل مخارج الكلمات التي

انطقها، وتتعثر جملي، وكأني في حضرتها لا اعرف أن أقول، فلا يستقر لي تنفسي، وكأني كنت قد وصلت إليها من بعد ركض كثير، ولكني كنت على يقين بأنها تسعد كثيرا بالتمادي بعبثها معي، فتدفعني بجرأة وتهتف بصوت غنوج:

- أنت رجل رديء.

كأني اطرب لنغمتها، وأميل جانباً لدفعتها، وأبتعد في الاتجاه الذي دفعتني أليه، فقدت السيطرة على نفسي فلم أتمالك وكأني عصفور قد أطلقته من قفص، صرت أحس بأن يديها قد اخترقتاني.. كم صرت أشاركها لعبتها، واخفي اشتهائي، حاولت الغوص أكثر في سناء ما يشدني ولأثيرها كأنها تثار أكثر كلما تغاضيت عنها أكثر، وربما باتت على يقين باني قد صرت لها صيدا سهلا لتجارب هي تخوضها مع صديقاتها، اللاتي غالبا ما أراهن يختلسن النظر بحجة أو بأخرى، ليعرفن نتائجاً هنّ قد رجينّها. كنت اعرف بان اغلب قصص الحب لها بداية كهذه، تبدأ بالهزل، وتنتهي بالعشق العنيف، فضحكت وأمتد صمتي طويلاً بينما راحت عيناي تتسابقان على مباهجها الأنثوية.. كأنني في حلم، رفضت كل شيء ونهضت إليها من جديد.. تتقاسمني نوازع شتى، مغشيا أتطوح في رائحتها الذكية، أتنشقها بعمق، واقبض على أنفاس منها، متحديا أن تفلت تلك الحلاوة من رئتي، حاولت أيجاد نفسي قريباً مما يشعه جسدها السني من دفء كأنها تجذبني من كل الليل الطويل وتغرقني في ميدانها.. يتوقف زمني كله، فلم أعد

أحتمل وقوفه، أحس بالاختناق.. الزمن كله يعدو سريعاً خارج جسدي، وتكبر الأشياء من حولي وتتقدم بينما زمني يحتضر. أتقدم منها، وصرت أخاف أن تفلت مني إرادتي فأحاول أن أمد أصابعي بعنف بين ساقيها، صرت أتخيل باني أفعل ذلك، لكن بنطلونها (الجينز) يفشل اندلاقي عليها، أحاول أن امضي قدماً؛ اقبلها، أمص رحيقها، التثُم شفتيها الكرزيتين، ألامس بأناملي شعرها الأسود الطويل، من المنبع إلى المصب، وان أضع انفي في مفرق نهديها، أن أنغرز عميقا فيها، كأني اقبلهما وامصص أصابعها العشرين واحدا واحدا؛ ان أرى الذي لا يرى، وافرك حملتيها القرمزيتين برهافة أصابعي؛ أن أطير كسحاب حولها والتحف بها، أطير حولها كالأثير، وربما تحول ألي عينين قاسيتين وتتبعهما بكف ثقيل حطّ على وجهي بصوت أصفقت أصدائه في أرجاء القاعة الصغيرة الصاخبة، وربما ستوقظ كل العيون ألي، وسكون هدفا للوشاية، قد تجعلني أتحمل خسارة وخيمة لا تحمد عقباها.. كم تمنيت أن أحافظ بما بقي لدي من رباطة جاش، وادع أيامي القادمة تأتي بسلام، محاولا طمس إحساسي بالاستهداف بسبب نقص في الخدمة العسكرية، واستمراري كطالب يمنحي حصانة، الاستمرار، ويضمن تفلتي من الإحساس المتواصل بالاستلاب. أحسست برداءتي، جمعت نفسي وقواي وسرت كسيراً مهيضا أجرّ عربات ذاتي بعناء ومشقة وأحاول الخروج من فكرتها، إلى مكان آخر، من قفص الرغبة المليئة بالمتعارضات.. يلامسني الهواء الخارجي فأحس بانتعاش، فراغها لا تسده الهموم ولا تنسيني

إياه. شيء أحسسته صار بعيداً، ولم يبق لي إلا تعازي نفسي ولومها.. دارت عيوني في صمت الليل الخارجي حاولت التقيؤ للتخلص من عبء ثقيل، ففعلت، وأحسست بالضياع.. دوران رأسي لا يتوقف.. بي حاجة لا أعرفها ولابد أن فكرة ما لوضع حدّ لكل هذا الجنون، من بعد أصبح اغلب زملائنا مهتما بأمرنا، ولكني ما زلت أتعمد التجاهل.. تطوف بي الظنون، والمخاوف فتكاد ضحكاتها تتحول إلى سكاكين تحفر أحشائي، صرت افهم بان الاقتراب منها سوف يفقدني كل استقراري، ومن اليسر أن تكون كلمة واحدة من ذلك الرجل بان ترهب جميع من معي، وأكون قد لفظت كما يلفظ البحر زبده على الشاطئ.. أريد أن أمدّ يدا لقلبي الغارق في هكذا يمّ عظيم اللجة، ولا استطع، فكم اشتهيها، وارغب بها، ولكنها صارت تعرف بأنني معها في مفترق طرق. صرنا على حافة هاوية، ولابد أن ينتزع القرار، ولابد أن نسير إلى قدرنا، ولابد أن يحول الهزل بين اثنين إلى قصة حب عنيف.. تجولت وحدي في الشارع، اشعر بها كما لو حامت حولي كطائر أحس بالحرية لتوه. انطلقت على غير هدى، كانت تحط الطيور في الصباح هنا على المكان ذاته.. لكن أين أجد ليلا جميلا في وحشة هكذا ليل؟، كأني أرها تهمسني تعال: وحدي طائر الليل وأحسه طويلاً.. يرتج جسدي ويترنح، تقول لي تعال واقتحم فلابد للقيد أن ينكسر. حاولت ذات يوم أن أزرع شجرة في بستاننا يومها كي لا أنسى الذي حدث هكذا كان يفعل أبي في مدينتنا البعيدة. غربتي تزرعني هنا، و قلت ساخراً: (أنا سأزرع زهرة برية في خصب

راحة يدي).. سأحاول أن أجد بذرة لزهرة عدم النسيان.. يقال بان للفشل والحرمان رائحة مقفرة وكريهة، سأحاول ذلك بكل جدية.. يختل توازني قليلاً فأسقط وأنهض سريعاً.. لقد جعل مني الهم أكثر إختلالاً، وأكثر رهافة، فقلت: صديقتي وحبي الأول في هذه المدينة البعيدة.. دعينا نتجول معاً في كل هذه الأمكنة، نتخطى كل هذه الساعات الرتيبة، دعينا نغادر هذه القاعات المليئة بالعيون، والمخاوف، ولنفارق هذا الإعياء، والتوتر، ونتكلم عن خصوصيتنا بموسمها الآمنة، ثم نعود لنكمل درسنا، ونخط بفخر ما نتمناه لمستقبلنا، كم أنت قريبة أيها المرأة التي أريد، وكم بيننا حواجز، وسدود.

لكنها اليوم راحت بعيداً مثل زورق صغير أخذته الأمواج، على الرغم من اسم ربيبها الذي اخذ يطغي بفرض حضوره عبر الفضائيات العالمية والمحلية، وصار نجماً سياسياً بارزا في نشرات الأخبار، فما زال فكري مشغولاً بذلك الولع الجنوني بها، وكنت كلما أراه مبتهجا في القنوات الإخبارية، كأني أراها.. فتزداد الفجوة بيننا بقدر علوّ نجمه، وإنا أتحرق شوقا لملاقاتها أو معرفة إخبارها، وأتحرق ندما على فراقها..

كأني كنت أقول لها:

- احمدُ الله كثيرا بأنني لم أقع بين قبضته يومها.

فتضحك لي وتواصل القول بأرخم صوت:

-وأنه فاز في الانتخابات العامة لمجلس الأعيان، وقد أسندت إليه مناصبا جديدة أخرى..

صديقتي البيضاء كانت لا تتعمد، وأنا لم أقصد إيذائها، وأن تعجلت شيئاً سيحدث، وارغب في تقبيلها...

اللحظة تقول:

- من السهل إن تجد صديقا عابرا، ولكن من الأصعب بان تجد حبيبيا دائما إلى الأبد..

عيناها مازالتا مسمرتان بذهني:

- ألم أقل لك بأنك رجل رديء؟..

تلفت إذ كانت هي لا تريد أن تجعلني أتوهم، وبأنها قد قدمت لتتواصل معي وتنهض إمامي كفرس صهباء متباهية بغرتها الجميلة، ولم تك خيالاً، فأيقنت باني لم أعد وحيداً، بالرغم من غربة كل تلك السنوات الغابرة..

قص قصير جدا

العربُ مُتَطيّرون ويحكمهم التطيّر بكلّ وجودهم[١٦]..

١. كتابة

خياله المحدود، ذهنه المشتت، لم يتحرك القلم بينهما مادا بالكلمات ليرتبط ببعضها بعضا، ويرسم صورة.. بعدما تلامعت أعينهما، قالت له الصورة.. مددت يدي اليك.. لكنك سبقتني، جذبتني، اخذتني.. قلت لي في ثوبك بيتا.. قلت لي قصائدا، وانزلتني تفاحة ناضجة... تناثرت الاضواء على الوان توزعت على خضراء بلون الزرع، واخرى دافئة.. قال لها وجدتك في ثوبي دفئا، واستقرارا.. تداخلت الاضواء.. اكثر، ارتسمت بيتا بجدران.. ونفسا طيبا.. وجدت في عينيه الصدق مثلما وجد.. امتثل الى اللون المتدرج الى لون آخر.. انساحا باتجاه بعضيهما، تداخلا عضويا.. امتزجا كيميائيا.. كأنهما صارا بلون واحد على بياض الورقة.. ككلمات ملونة، رسمت ما خطر بذهنه المشتت من مخاوف..

---

[١٦] (نقل بتصرف عن الباحث العراقي العظيم المنسي د. جواد علي)

٢. نفس جديد

"الانقطاع عن الكتابة، لفترات طويلة، تربك كثيراً عند العودة لها، ولكنها تشبه اعادة نظر جديدة الى حياة اخرى جديدة".

٣. دوغمائيون

بعد ان وضعوا النقاط على الحروف أتضحت له المعاني، تبدت له جلية، وكأنها فاضحة لزيفٍ تقصدوا طمسه، بدأ يقرأ التاريخ بطريقة اخرى جديدة، تبين له فراغات ومساحات من اسئلة كثيرة، وكبيرة شخصت من جديد.. هل يسأل نفسه "كم بقيت من المساحة الضائعة". اراد ان يجهر بالصوت ويسال: - "لمَ يركض وراء سرابها يقطعها بعمره، خلية بعد أخرى يتناقص جسده المبتلى الذي بقي موصولا تحت نير التظليل ذاته"..

خيوط عناكب دلت له ان لا احد قد وصل اليها منذ زمن بعيد. حشرت في متاهة بعد أخرى، وقد تقلص عليه المكان. المساحة الاخرى تتسع في الطرف الآخر بينما تضيق عليه من جانبه، معادلة منطقية، كل ازاحة في الكون على حساب اخرى. فكر مليا "الصوت يقتله وما من ملتفت"، مواصلة التنقيب في كومة المخطوطات المتراكمة تختصر له مستقبله، يبوح لنفسه بكل ذلك التفكير، لأجل ان لا تنهرس ذاته بين الجدران متراصة، خانقة. "هم من يتربص

للتاريخ" يطلّ بنظره الى خارج المكان، اكتشف ارتيابهم وما زالوا يرقبونه، بكل حواسهم.. "هم يدركون خطورة الكشف عن اسرارهم"

٤. المعرفة

"الأديب الأكثر قراءة ذاته الاقل نرجسية، واعتداداً بنفسه، حيث يطلّ على العظماء الكبار، حييّاً من قلة الحيلة، وضمور المخيلة".

٥. لقاء عابر

في آخر لقاء صحافي تجرأ وكشف للصحافية الحسناء، ذات الوجه المشرق، بما كان يجول بخاطره:

- "الحديث عن الرواية كجنس ادبي حيّ، متفاعل مع الارث الثقافي المتكامل لا يتوقف في العالم أجمع، الا انه لدينا كشرقيين، صار مقتصراً على نخبة معينة من عشاق، وحدهم من يكتب، ويقرأ. في حين بات أغلب كتاب الرواية العرب، لا يقرأون حتى لأنفسهم، طامة كبرى ستميت الرواية

العربية، وحسب كم يبدو ذلك مضحكا، ومبكياً في الوقت ذاته"..

في اليوم التالي اكتشف انه لم يزه أحد، ولم يكن هناك اي لقاء اجري معه، لكنه يتذكر انه قابل تلك الفتاة صاحبة الوجه الذي لم ينس ابداً.

٦. فتاة عابرة

ذاتها تخطرُ مزنرة.. بخصر صقيل، يهفهف العطر مسكاً خلفها.. فما قامت دنيا الا واحتشدت رجال بخطوط بصرها خلفها، كادوا ان يكونوا ملتصقين بها.. اعينٌ تتشهى، واجساد تتلظى.. حسرة إذ؛ فرقت الشهوة النظر وشتت الطريق الوحيد.. ثم مزقتهم الامنيات الضالة وراء خطوتها.. فامعن الظل في نهاية الطريق بالقتامة.. كأنهم ما امهلوا انفسهم.. بعد هزيمة روح، وبعد تيه معنى، وتاريخ مزوّر.. وراء تيهها، وعبيرها، بكل المساءات التي بقيت مكتظة بالسواد، والأرق.

٧. ذكريات

وجدت عرضاً بسعر مناسب لدى راقن كومبيوتر في باب المعظم لأجل ان يرقن لي رسالتي استعدادا لمناقشتها (ايام زمان)، وكان ذلك الرجل مصري الجنسية فكلما ورد امامه اسم "حسني مبارك"، يكمل من عنده "السيد رئيس جمهورية مصر العربية" حفظه الله ورعاه، تطلبت مني تلك اللازمة القدرية ان اعيد الطباعة ربما اكثر من مرتين، ولم اكن اجدها تتغير، حتى سألته ان كان يظن نفسه باقيا في مصر، فأجابني جوابا مؤثراً يومها:

- "انا جسمي في بغداد وعقلي واصابعي مصرية"..

من يومها اكتشفت باننا كعرب من يحمل لهم في عقلنا الراسخ جبروتا لا تستطع ان تزيله المسافات البعيدة، ولا الظروف المتغيرة.

٨. مُفلس

لو اعترف العراف صدقا لأنفض عنه مريدوه:

"لا افتخر ابداً باللذين يواصلون بيع الوهم على الواهمين، ولا اتبع الأبواب المؤدية الى العتمة.. انا ابيض اللون اخط على السواد

بقلمٍ يعلم مما تعلمته من العلم، وانا اسود اللون.. قد اكشف عن بياض يعلم ما تعلمته من العلم.. ولا افتخر بما ليس عندي ابداً".

٩. تزَلّفْ

ايتها العاشقة تمسكي بغصن الوردة، وتجملي بورقها المتلامع بزهوه، وعطر قلبها الفواح، اقول في سري ايتها السر الغاوي بكل انوثته، ايتها الشريكة الأرضية الملاك الذي ينير لي درب مسالك كوكبنا المزحم بأهوال الاطماع؛ "معذرة؛ ان اقترحتُ عليك صورة، فيها فكرة، ربما تسعدك للحظة، واكون اكثر سعادة منك، لأني وهبتك اياها لتناسب ذائقتك"..

١٠. تفكير

العقل مواجهة: وما قيمة العقل عندما يفقده السيف حجته، هذا بائع الفلافل ساءته الاسماء ولم تبقِ على احد من ذويه.

١١. عشق

وجه امرأة؛ يقابله الشاعر، تستشرقه القصيدة، رقراقه.. مثلما كان وجه امرأة؛ قد تصيّر متضوعاَ في الدروب، حبقاً ، وعصافير.

١٢. نصر مؤزر

"العاجز دائماً؛ ينتظر من العالم الخارجي ان يخلصه من سالبيه حقوقه، ودائماً هو من ينصر تماثيله، واشباحه، وقاتليه على نفسه، ويحتفي بنخب مقالبهم الى حدّ الدمار، وبالحجّه ذاتها".

١٣. أدب

والناقدُ ذائقة متحسسة متبصرة بعد النص الذي خرج من عقل المبدع..

١٤. صور اخرى

البلاغة قوتها في التصوير، تجعله نابض، متحرك في الذهن، صوره تتحول من حروف الى خطوط متواصلة المعنى، متواصلة

الدفق، تحقق دهشة، فتحدث فعلا فيزيائياً، يتطور فيه القصد حتى يمتزج مع ملتقيه كيميائياً، ذلك الفعل غايته الكبرى الاشعاع، كرساله، فيها احد الاسرار الخالدة.

10/12/201

لَيْسَتْ بِشَيْءٍ يُذْكَر

زقزقةُ عصافير، وهديلُ حمام، وأطفالٌ تمرح حول القبور..

- أوجد الصمت بيننا مساحة للتذكر.

المكانُ ذاته قبل عشرة سنوات. عندما استلمت من المستشفى الساق المبتورة التي افسدتها "الغانغرينا"، انطلقت بها الى هنا. ركنتُ دراجتي الى احدّ القبور، مضطرباً. هُنا اخرجتها من كيسها النايلون ملفوفة بشاش أبيض. وحفرتُ لها حفرة صغيرة. هُنا، طمرتها بتوتر وتشنّج وارتباك وخوف. لم اطلْ النظر إليها- تلك ساق أبي المبتورة التي استحال لونها الى الازرق المائل الى السواد. تلك القطعة الادمية الزرقاء.. كانت تفوحُ منها رائحة كريهة لا تحتمل، ادخلتها حتى عمق الحفرة، وهلتُ فوقها التراب. لم التفت إليها. من شدة خوفي. ولم أعد الى المكان، كما لم اتخلص من كوابيسه، التي ما فارقتني. بحثتُ عن مدفن القدم، فلم اجد له اثراً. من بعد ان شخصت فوقه قبوراً. حملت زخماً كبيراً من اموات المدينة الجدد، قبور متراصة. حملت الوجه المطمور بالتأريخ القديم، والوجوه الغائبة. اقفاصٌ ميتة حولت قبورا محاطة بالورود الصناعية شوّهتها الشمس، وقحلّت أوراقها. مسخت الوانها عواصف الغبار، والنسيان. "سيأتي بعدنا تاريخاً جديدا ووجهة نظر أخرى". الكلمة تضيق امام ذلك الامر. هُنا اتذكر ما كان يقوله لطلابه:

- "التاريخُ هو صانع الإنسان كما ان التاريخ الحقيقي قد صنعه فعل الإنسان وليس خياله". فالذي تناقلته الناس وفرضه البعض على البعض منا هو مجرد تاريخ لغوّ ابتكره الحكائون في الأسواق العامة لبضاعة الحاكم. فغالباً ما كان التاريخ المُسرد منقوصاً، وغير مقنعاً، فالذي حلّ محله وهم وخرافه. فخضوع المجتعمات الانسانية لرغبات الملوك الاوائل الذين زعموا بأنهم كانوا ينحدرون من سلالة الآلهة.. استخدموا لذلك رواة أفّاقون يخبرون عنهم بأنهم إلهة حقيقية. همُ في حقيقة الامر ليسوا سوى ملوكاً تحولوا الى آلهة بقوة السيف في مجتمعاتهم.. هنا ثبّتوا اركان دولتهم بكلّ ما أُتوا من قوة، وخديعة. بكل تلك الصياغات الخياليّة اللاواقعية. فرضت نفسها على انها هي الاصل للتاريخ المروي بصيغة الحق، بات اليوم جداراً عالياً ليس من السهل عبوره. هنا، "الانسان يشيّدُ التاريخ دون ان يعرفْ بذلك[١٧]". كتبهُ الرئيسة لا تتعدى (الأخبار، السيّر، الطبقات، الاعلام، المناقبُ)، ولا تتجاوز (الكاملُ، الوافيّ، التكملةُ، الصلةُ، المفصلُ، المختصرُ، المُنتقى، المُنتظمُ)، إذ ضمّ (المغازيّ، العيون، التنبيه، التجارب، العبِّر، المقتبس)، خلال (البداية والنهاية، المبتدأ والخبر). مثالبٌ، ومكائدٌ لن ينقصها سوى (الاستقّصاء). كانت غربته تتسع، من اجل اعادة تصنيف ذلك الكمّ الهائل من الأوراق الصفر، وحسب اصولها. وإلا اختلط التاريخ بقصص الأدب. خاصة من بعد ان حضرت الراويات المُبكرة،

[١٧] كارل ماركس

والأخبار المُتأخرة في نهجٍّ واحدٍ لا يقرّهُ منطق التسلسل، وبحثه العلمي. تصاعدت رغبتي الى قراءة الحروف التالفة. يدفعني الفضول في معرفة الحروف الدفينة، تلك التي حوت تاريخاً مرصوفاً، تاريخاً خبيئاً في كراس دفن في مقبرة كانت أرضها في الاصل لتاجر من يهود المدينة التي تجاورها، واليوم صارت جزءاً من قلْبها. أيعقل ان لا يكون له اهمية هذا الذي وجدناه في ذلك الصندوق الانيق؟. يقول ابي:- "التاريخ بمعناه الواسع هو قصة الانسان في الكون وتفاعله مع الطبيعة على مرّ الزمان، وهو في هذا يشبه نهرا يتدفق من المنبع الى المصبّ.. من بداية الوجود الانساني حتى اللحظة الراهنة حاملاً تفاصيل رحلة الانسان التي لم تتمّ عبر الزمان". هنا، على حافة السطر قرأت: سرَدَ يَسرُد، سَرْدًا، فهو سارِد، والمفعول مَسْرود: سرَد الدِّرعَ نسجها فشكّ طرفَيْ كلّ حلقتين وسمَّرهما "أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ". هنا سرَد الجلدَ: خرزه، ثقبه. سرَد الشَّيءَ: تابعه ووالاه. هنا سرَد الحديثَ: رواه وعرضه، قصّ دقائقه وحقائقه "سرَد القصّةَ ونحوَها، سرَد أخبارًا، وقائعَ، تاريخًا" هنا سرد الكتابَ: قرأهُ بسرعة. "سَرَدَ وَقَائِعَ الحَادِثَةِ": ذَكَرَهَا كَمَا حَدَثَتْ حَسَبَ تَسَلْسُلِهَا. يومها كنت قد دخلت لوحدي الى ثلاجة الجثث، وكان قد بات ليلة كاملة مع مجموعة من الجثث ناقصة الايدي والأرجل والرؤوس، والمبقورة البطون، قد خلت من الاحشاء او امتزجت بأشياء لا يقدر العقل على فرزنتها، أو مسخها حريق أو هرأتها الانهيارات العاصفة. الجثث بعضها ملتحمة، ممتزجة، مفرومة مع جثث اخرى استقرت

في حاوية معدنية، ركنت جنب بعضها البعض، في ثلاث صفوف من الارفف كل رفّ حوى ثلاثة طبقات كل طبقة حوت على جثة، يستدل اليها من رقم الحاوية. لم يجرؤ احد معي على الدخول، لحمله. لأول مرة احسّست بان الثقل تضاعف، وبالكاد وصلت به الى خارج الثلاجة، انزلته برفق الى دكّة غسل الموتى التي لا تبعد سوى عشرة أمتار. كنتُ فيها اول مرة أطيل النظر الى ذلك الوجه الذي كنت اخافه. فاحسست بأنه كان طيباً الى درجة كبيرة. لم اجرؤ على النظر اليه هكذا حتى وان كان نائماً، اول مرة تواتني الشجاعة، وانظر طويلا في قسمات وجهه، ولم انتبه طوال حياتي معه على خده الايمن تستقر فيه شامة واضحة، وبأن بشرته بيضاء، ووجهه حليق. بارد.. بقيتُ ارتجف هلعاً.. حتى بدأت مراسيمُ الغسل، بتعريته، وحشوِّ بعضه بالقطن الابيض النظيف، حتى إلباسه الكفن. كان في الخامسة والخمسين من عمره عندما رزخ تحت حاجته الى كرسي متحرك، ينتقل به، او ننقله عليه من البيت الى المدرسة، وبقية مشاويره. رفض بتشدد ان يبقى حجيز البيت، وان لا ينقطع عن بقية حياته. هُنا. كنا نحفر قبراً لأبي، ذات فجر تشريني تنشر فيه الشمس اول ضياءها. حملنا باكرين معولاً ومجرفتين، ثم نزلنا طريق المقبرة الصاعد بين البساتين، وما ان وصلنا– الى هنا- اخترنا مكاناً فارغاً، ثم بدأنا الحفر. يومها وجدنا الصندوق الخشبى المنقوش بالزخارف النحاسية الدقيقة، مدفونا لوحده في نفس المكان الذي قررنا ان ندفن فيها جثة "والدي". تمليتُ ما فيه جيداً. ولم تكن العلبة عصيّة على الفتح،

وجدت فيها ختم على شكل خاتم خشبي حالت الرطوبة لونه الى أسود، (تذكرتُ باني عبثت بآخر شبيهه كان لا يفارق جيب ابي). اما الكيس فقد نامت فيه كراسة صغيرة، مكتوبة بالحبر الأحمر، وقد زحف الحبر بفعل الرطوبة، الى حافات الورق، وتشوهتْ معظم الكلمات، فحالت دون قراءة معظمها. ولم تمكَّنني معظم المواضع من قراءة النص بيّسرٍ. لكني بقيت على يقين بأني سأقرها ذات يوم، حتماً، وقطعاً. رغبة الاكتشاف تستصرخني. بقيتُ أدمدم مع نفسي، كمن تسيطر عليه فكرة ما:- (سردَ: درع مَسْرُودَةٌ، ومُسَرَّدةٌ بالتشديد. فقيل سردها؛ نسجها، وهو تداخل الحلق بعضها في بعض، وقيل السَّرْدُ الثقب، والمَسْرُودَةُ المثقوبة، وفلان يَسْرُد الحديث إذا كان جيد السياق له وسَرْدُ الدرع والحديث)... ان اتمكن من قراءته، وإعادة نسخه، لحظة بلحظة، فلم استطع ان احدث به أحداً. لعلهُ مخطوطٌ يسرد "تاريخ الالم" المختزل بأسطر. المتغير من زمن لآخر، ومن مكان لآخر. المتداخل خيالا، وخوفاً. لم أعرف كيف اقرأه. لاكتشف القعر السحيق، حيث يتصارع النسيان، والغمّ. صورةٌ تودّ الخروج من العمق الى اعلى كما في قصة "سلحفاة التي اخطأت فنزلت الى العمق السحيق ومن بعد ان نفد الأوكسجين وجدت نفسها قد علقت بين صخرتين".. اضطراب، فوضى. او انها اشبه ببركان بقي يغلي طوال سنوات. هنا "هكذا تخيلت". باني سوف اجد معلومة ما عن هذا الخنجر المتين، المرفق، المرصع بالنحاس، وما تعنيه تلك التنانين المتلاحمة، وكأنهما الواحدة قد امسكت بالأخرى لتصيب منها مقتلاً.

لونُ المقبض الحائل الى لونٍّ أخضر يمتدّ الى نصله المسنون، وكأنه قد تبيّس عليه دم قتيل، لن تفارقه الى الابد. النصل، له عوّجة خبيثة، كأنها زعنفة قرش، استعدّ لضربته القاضية.. بدى الخنجر ضارياً، وبقسوة تلك الاحداث التي شهدتها الايام الغابرة. معلومة الكاتب، ومكتوبه. كاني اطارد صورة ما، تجلجل في ذهني، وتمنعني عن التركيز والفهم. فيما كنتُ أقرأ؛ كنتُ احلمُ. صرتُ على يقينٍّ باني لو تركته لما صرت فوق سرابه، فالتخيّل يخبرني العجب. وما عجبتُ بوصف الرجل الذي عرفته منذ اول سطر. "اوقفتني متانتهُ، وبلاغتهُ، وعنوان رسوخه".. في ذلك اليوم لم نتوقع بأننا سنجد تلك العلبة الخشبية بذات الموضع الذي بدانا الحفر فيه. التفت عمي الي وقال:

- "ماذا وجدت يا ولد؟"

لم اقل شيئاً سوى اني وضعته أمامه.. محتاراً ماذا اجيب. لكنه لم يعرّ لذلك الشيء اهتماماً، وقال علينا ان نتعجّل بأمرنا وننّه الحفر، واستلام الجثة، ومن ثم الصلاة عليها في الجامع. علبةٌ حرفها مرسوم بدقة متناهية.. تؤكد بان كل تاريخ الدنيا تفرضه جغرافية المكان، فالمكان هو حاوية التأريخ، التأريخ الذي ابتدأ من نقطة فالتفّت حوله الانهر الكبيرة. هنا نشأت البلدان، وقامت العمران. "التاريخ موقع النهر، او النهر موقع التاريخ". ويلتف من حوله الناس. "عندنا المدن دائما تجرفها قراها"، "مدنهمُ المتحضرة تجرف قراها". بقي والدي يتحدث عن التأريخ ومساراته العقلانية. في

المستشفى كان يسرد في هذيانه سير الملوك :- (حمّداً لك يا ربُّ أنك جعلتني اشهد صيدهمُ لصياد الصيادين المغتّر بأهم الاسماء وأغلظها طغيانّاً، من بعد ان خلفَ دماراً لم يخلفهُ مدمّرٍ من دمار). وجدتُ الجملة ذاتها مدونة في متن المخطوط، التي لم تتلفه الرطوبة كلياً، وقرأت ما كنت اسمعه منه مراراً: (في ليلة باردة صعب فيها النوم كان كلبه يشترك سكنه مع بقرته في حظيرتها القريبة من سرير نومه فتصاعد عواء الكلب وزاد من كدر تلك الليلة البائسة: - "ربي فديتك ان تأخذ روح الكلب وتخلصه من عذابه وتخلصنا من عواءه" فسكت الكلب بعدها، ثم غفي حتى الصباح، ولما تذكر ما حدث ارسل خادمه الاعمى الى الحظيرة ليستطلع له ما جرى للكلب، فعاد الاعمى بخبر البقرة التي قد ماتت. تنهد عميقاً ورفع نظره الى اعلى قائلاً:- "ربّي لك الحمّدُ والشكرُ فهذا الاعمى قد ميّزَ برحمتك البقرة من الكلب")، حكاية تنتهي لتبدأ حكاية بعدها، حكاية متواصلة ارتكز عليها التأريخ من الحكايات المسموعة التي باتت مكتوبة؟ اوقفتني عن الفهم، والتصديق. فثمة بوح عاقل يهدر من بين السطور، بهذه المساحة الضيقة، كشفت عن سرد كشف رؤية دفينة "قد فدينا ملوكنا الأوائل اذ باتوا لا يستغنون عنا لأننا دروعهم البشرية التي لا تخيّب أمرهم". الكتابة اما ان تكون مقنعة بتسلسلها، متينة بمعناها الغني، وإما زائفة غايتها الاطناب، التي لا طائل من ورائها سوى المباهاة، بعدد صفحاتها. فكلما لامستْ جرحاً من جراح انسانيتنا التي ننتمي إليها، تأتي بالتشويقِ. كتبُ التاريخ تعني تحدّي عاصف، وارتباك فاضح،

تشابكت فيه المصالح بالمطالح. "أومن بنفسك اولاً قبل ان يؤمن بك أحد"؛ (ليس حلماً ان تكون وحيداً/ فالرواةُ كسرٌ/ حروفهمُ رملٌ/ عيونٌ لتاريخ أسلحة/ ورغائب.. هنا كيفما سُحبنا تُخيَّم/ و تغيمُ/ ينزل لغيرنا المطر/ المشقةُ ليستْ غُربة/ لكن ان تُنفى غريباً بين اهلك؛ لمشقّةٍ/ ما بعدُها مشقّة). تحسستُ الشعر المسطور، المؤشر بقلمه الأحمر. "شجرةُ التاريخ جذروها تمتدّ عميقاً في الأرضِ" وجدته مدعوماً بهوامش، ومراجع تُحيلُها التضميناتُ، الملاحظاتُ، والتعليقاتُ الى امَّهات الكتب التي كانت اغلبها تستقرّ في سردابِ بيتنا القديم. هُنا، بقيت الدموع تسحُّ من ليلة المستشفى. هُنا، قرر الطبيب تسليمنا الجثة صباحاً. فذهبنا لاستلامها بعد تهيئة القبر. هُنا وجدنا الشرطة تطلب فتح تحقيق معنا كأصحاب شأن لجثة ناقصة الساق بتهمة لا منطق لها، "انتحارياً قد فجّر نفسه على دورية شرطة"، و"عليكم الادلاء بمعلومات حقيقية عن ميتكم، وسرد تفاصيل حياته، بدقة، وإلا اودعناكم السجن، ولن نسلمكم الجثة". أجبنا:- مات بالسكري وقد عَصَفتهُ "الغانغرينا" ومعنا شهادة من الطبيب المختص والمستشفى تؤيد صحة ادعائنا.

- هُنا افسدوا القصة.. اليس كذلك؟
- نعم كتبة رواة الدهر هُم كتبةٌ لتذكرٍّ عابر؟..

بقيتُ أقرأ مساحة التذكر، هنا بين القبور.

٢٠١٢/٠٤/٣٠

أين تكمن تلك الأسئلة؟

أنا من رأى (جحشه) بأم عينه في محطة القطار الواصلة الى مركز (بعقوبة)، والتي شيدها الانكليز لتربط بين (بغداد)، وبقية نقاط التقاء المسافرين إلى العالم. فانا من قرأ عنه فيما بعد، وأنا الوحيد من بين أبناء جيلي كنت عارفاً بمصيره، لأني عثرت عليه، مصادفة، بشحمه ولحمه بين الكتب. عرفت عنه أشياء أخرى بعد ما قرأت (العم محفوظ)، الذي كان يتخذ مما يشاهد، وما سطرته الأيام والحوادث في سجل المحيط المصري مادة لأقاصيصه. ففي بذلة الأسير- من كتاب (همس الجنون)، ذلك هو نفسه بائع السجائر الذي خلقه (نجيب محفوظ)، العظيم الذي لن يلحق بركبه احد من أهل هذه الأرض، (العم محفوظ) الذي وجدته يغمرني بعطفه كلما أمسكت كتابا من كتبه، وإنا اعني كلما شاهدت أمامي بلحمه ودمه شخصاً يتجول بين دفتي الكتب التي كنت اقرأها، أكون في غاية الإجحاف عندما لا اعترف بخلق الخالق المبتكر الصانع الأمهر الذي وضعتني براعته على المحك بان أكون او لا أكون كاتباً، فكنت ذلك الكاتب الذي تقرءون له اليوم، والذي حدث باني حاولت بكل ما عندي من طاقة، وعناد، ووقت، يومها لم أكن اعرف اسمه، أصلا، ولكني بعد، وبعد (همس الجنون)، صرت اعرفه (بائع السجائر) باسمه وتاريخه، وكل شيء عنه.

فهذا لا يمكنه أن يتكرر أو يحدث مع أي منكم، وان كان بيته على مقربة من تلك المحطة المجلجلة في الذاكرة، كنت يومها في الثالثة عشرة، أو ما يقارب، عندما اختفى السيد (جحشه)، من طريق

مروري اليومي كلما أعود من بيت خالتي وزوجها الحاج (محسن المحولجي[١]).

أراه في كل مرة لا يتوقف عن قضم الخبز، يمتضخ، وينادي على بضاعته المحمولة بعلبة خشبية معلقة الى رقبته، ويلبس (دشداشة/ جلباب) بلون قاتم ولا يفارقه الذباب، حاف القدمين، نتن الرائحة، يلحن بصوت مخيف على بضاعته، ويتطاير زبد ابيض على شدقية، ولا يسلم من رذاذه العطن أي زبون، وبرغم ذلك كان يعده اغلب عمال وموظفي المحطة انه من الناس المبروكين، فمن أعطاه خبزا، فحتما سيصيبه رزقا كبيرا من حيث لا يحتسب. وفي يوم عاصف ممطر اختفى بائع السجائر من على ناصية المحطة، وكان غيابه حدثاً غير مسبوق، لأنه كان يعيش بحضور لافت على رصيف المحطة، يثير الشفقة، والعطف. ففي غيابه راحت قصص الناس تترى من ظنهم، حيث من قال بأنه (ملك) صالح أخذه الرب ليصلح به مدينة أخرى، من بعد أن هداه لهذه المدينة. وقال آخر بأنه هرب وقال من قال بان أهله أخذوه ليعيش بينهم، وكنت أنا اسمع من الجميع أثناء مروري غير مهتم بأمره أن غاب او حضر، بل كنت أتحاشى رذاذ فيه المتطاير على وجوه من يتحدث إليهم، اذ كنت أعود في اغلب الأحيان إلى البيت لاغتسل أكثر من مرة، وهكذا بقيت القصة غارقة في تشاريح الذاكرة، مستقرة بين طبقاتها، متليفة بين طيات العمق السحيق منها. والأدهى بان معظم الناس المتعايشين معه في ذلك المكان قد حزنوا كثيرا على فراقه وعبروا عن حزنهم يوم ذاك

بالكلام عنه في كل مكان وبدا يوما كابيا كثير العتمة، والناس بقيت تسمي ذلك اليوم بيوم اختفاء ذلك الرجل..

وصارت الناس تبحث عنه في كل مكان، من (جملونات) مخازن التمر المهجورة، و حوض الماء، و حتى مقهى (الكانتين) بفارسها البيزنطي إبراهيم (زعيله). ولم يعثر إي منهم على اثر أو جواب. باستثنائي فقد أخبرتكم سرّ الرجل الذي قرأت عنه، تلك القصة البديعة، المكتوبة قبل ولادتي بعشرات الأعوام. وبمثل ما قال (جورج لوكاتش) الناقد المجري المعروف: -(الشخصية الأدبية لا تصبح مهمة ونموذجية إلا حين يتسنى للفنان الكشف عن الارتباطات العديدة بين الملامح الفردية والمسائل الموضوعية العامة، وإلا حين يعيش الشخص الأدبي أمام أعيننا نفسها اشدّ قضايا العصر تجريداً، وكأنها قضايا الفرد الخاصة، وكأنها مسألة حياة أو موت). وبعد أن فرغت من خبري. اسمحوا لي بان اسرد لكم واقعة (١٩٧٧)م، حدث أن طلب منا ذات يوم بمرحلة الرابع إعدادي (عام) أستاذ[٢] اللغة العربية في درس الإنشاء أن نختار احد موضوعين الأول أن تشرح بيتا شعريا للمتنبي (لم اعد أنساه كما كنت ادعي، خير جليس.. الخ)، والثاني اكتب قصة قرأتها أو سمعتها، وكانت حيرتي بين الاثنين المغريين، جد كبيرة وعريضة، وشائكة، وأيضا شائقة، فاخترت الخيار الثالث هو أن اكتب القصة التي طالما رغبت تأليفها، وبدأت التأليف، واكتشفت لذة تسليم القلم إلى المخيلة، واستطعت فعلا انجازها بما تبقي من الوقت الضيق في غرفة الدرس وأن اكتبها بمثل

ما ضربتني قصة (جحشه) العظيمة، وأقول عظيمة بما لها عندي وعلي من تأثير، لأنها جعلتني أطارد الكتابة بخيالي أين ما تكون، في الكتب، أو في أحلام اليقظة أو التأملات المستقبلية.. حيث يعبر الروائيون، حين يبدعون الروايات، عن عدم رضاهم بإظهارهم أن العالم صُنع بطريقة سيئة، وأن حياة المتخيل أغنى من الرتابة اليومية.

إن تعمقت البديهية داخل الحساسية والوعي، فتكون أكثر قدرة على المجابهة، على عدم قبول أكاذيب أولئك الذين يرغبون في إقناعنا بأنهم يعيشون من اجلنا وهم يعيشون بشكل أفضل منا وبطمأنينة أكبر منا، بينما نحن بين القضبان، وتحت رقابتهم. باتت القراءة تحول الحلم إلى حياة، والحياة إلى حلم، كما روت لي (جدتي) أن أولى الأشياء التي كتبتها أو التي تخيلت بأنني كنت أحاول التمكن من كتابتها على ورق الكرتون الأنيق وارسمه بقلم (الماجيك)، مقلدا بعض ما وقعت عليه يداي من مجلات (سوبرمان)، (الوطواط)، (المغامر) (ران تان تان) المثيرة. كانت متواليات للقصص التي قرأتها، او التي حلمت بها، قد فرضت علي وقعها، وكأنني عشت بطلا من أبطالها، لأنني كنت أشعر بالحزن على نهاياتها أو لأنني رغبت، يومها، في تصحيح نهاياتها.. بينما كنت أنضج. فالقصص التي ملأت طفولتي بالحماسة والمغامرات، هي الآن تحضر، وتكتب بذهنية ما حصل عندي من رؤية، وكما حدثت لي من أحداث، فانا بطل جميع تلك القصص التي كتبتها، ولن أتنكر منها أبدا، لأني عشتها مضاعفة، أقول مضاعفة لان القلم قد دوّن بضعف لأنه قلم

مهما كان من مقدرة على الإيصال فانه غير قادر على موازنة كوابيس الحياة الحقيقية المرعبة التي يعيشها العراقي حيث اليوم يمرّ عليه أفضل من الغد، وهلم جرا.. فالقلم علمني أن أقرا جيدا، وعلمني أن اركض خلف الأشياء المتحركة لتثبتها كما الكاميرا الرقمية، ورحت أقرا، واقرأ- لأشحن كاميراتي الذهنية بالمعلومات حيث علمني (فلوبير) أن الموهبة نظام متدفق يدفع للقراءة تلو القراءة، بالصبر الطويل.

كما علمني (فوكنر) بأن الشكل، الكتابة والبنية؛ هو الذي يحيل الموضوع كبيرا أو فقيرا. بينما (سيرفانتس) و(ديكنز) و(بلزاك) و(هيجو)، و(تولستوي) و(كونراد) و(توماس مان) علموني بأن الاعتداد بالنفس والطموح هما أيضا مهمان في رواية الرواية بقدر المهارة الأسلوبية والإستراتيجية الحكائية. كما علمني (سارتر) بأن الكلمات هي أفعال لها بصمة على الواقع المعاش لأجل التغير، وعلى الرواية أن تكون كالبحث (الأكاديمي) تحفر ابستومولوجيا وتلتزم الراهن كخيار حسن، إذ يمكن لها أن تغير مجرى التاريخ. وأيضا علمني (كامو) و(أورويل)، (كازنتزاكي)، (ماركيز)، (عبد الرحمن منيف)، (ادوراد الخراط)، (محي الدين زنكنة) بأن أدبا عديم المثل هو أدب غير إنساني، بينما وجدت عند (مالرو)، (بورخس)، (يوسا)، بأن ثمة مكانا للبطولة والشعر الملحمي في اللحظة الراهنة كما كان عليه الأمر في عصر الإلياذة والأوديسة.

على الرغم من (دستوفسكي) فقد ألهمني بان كل من حولي يصلحوا لان يكونوا أبطالا يضرب بها المثل. كذلك (الاخوين رحباني) بصوت فيروز جعلاني عال الحساسية، ومتذوقا جيدا، لكل موسيقى.. أما (جورج لوكاتش)، كان يرى على الأديب بان يختزل في شخصياته ومواقفه أبعاد عصره ومشكلاته الكبرى، وان يجمع في نماذجه المصورة بين اللحظة الفردية والاجتماعية معاً. وجدتني اتوقف طويلا عند محطة (غاستون باشلار)، لاتملى جماليات الصورة والمكان، لانني عهدته خير دليل في مدينة الكتب الطيبة، كونه اكد لي بان الصورة، او الشكل في مقابل المادة او المضمون.. فمضيتُ قدماً أعيد قراءة (ادونيس) شعرا وبحثاً.. فوقعت في بنية العقل العربي بين ثابته ومتحوله.

ولم اعلق إلا في مجهود مشروع (الجابري) حيث قرأت العقل العربي بأثافيه- أربعها[٣]- فأرشدني إلى متن المتون، وأيضا أثافي رد فعل العقل العربي المقارن بالغربي، المتنامي بتطوره لـ(جورج طرابيشي[٤]) بلواحقه الفريدة العريضة، عرفت منه الكيفية الموضوعية المسقطة علينا من بحر الظلمات الباهر، اما (طه حسين) المعلم الأول الذي علمني كيفية الاصرّار على وضع النقاط فوق حروفها، وصرت ابحث في المتخيل (الرواية) عن الذي لم نعبر عنه، بدون الحاجة إلى قول ذلك ومن دون أن نعرفه، نبحث في أغواره عن الحياة مثلما هي عليه وهي لا تكفي لكي تردم عطشنا المطلق الذي يشكل أساس مساحتنا الإنسانية، وعليها أن تكون أفضل.

نبتكر (الروايات) كي نستطيع التعايش، بطريقة ما، مع الحيوات المتعددة التي نرغب في الحصول عليها حين لا نملك بالكاد سوى حياة واحدة. فكل من (هاملت) و(دون كيشوت) و(اخيل) و(شيلوك) و(عطيل) و(الجبلاوي) و(زوربا) و(رجب إسماعيل)، هم رفقتي الافتراضية، اراهم بمحبة يطلون عليّ من ارفف مكتبتي، ويلوحون لي بايدهم يومياً، مساندين لي بكل ضرّاء قبل سراء.. كوني تعلمت منهم بأنه يجب ندافع عن الديمقراطية الليبرالية بالرغم من جميع (مساوئها)، ما دامت تعنى بالتعددية السياسية، والتعايش، والتسامح، وحقوق الإنسان، واحترام النقد، والانتخابات الحرة، وتناوب السلطة، (أي تعني كل الذي أخرجنا من الحياة المتوحشة وقرّبنا- على الرغم من أننا لم نصل إليها في الواقع- من الحياة الحلوة والمتكاملة التي صنعها الأدب- كما قال صديقي العظيم "ماريو بارغاس يوسا" الفائز بجائزة نوبل للآداب)، أي تلك الحياة التي لا يمكن أن نستحقها، إلا بابتكارها، إلا بكتابتها، وإلا بقراءتها.

صدر للكاتب:

١. حركةُ الحيطانَ المتراصّة (رواية) * بغداد ١٩٩٨

٢. حربُ الحكاية أمس واليوم بينّ تدوّين المُحّبِّ، والكارّهِ ١٩٩٨م- بغداد

(دراسة مقارنه)..

٣ بعدُ الجمرّ.. قبلُ الرمّاد (قصص) * ١٩٩٩ دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

٤. جمرةُ قرارٍ أبيض * (قصص) بغداد ٢٠٠٠

٥. أربعٌ وأربعون متوالية* (متوالية قصصية) ٢٠٠٠

٦. ما بين الحبّ والحبّ (قصص) ٢٠٠٢ * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

٧. زمن ما كان لي (متوالية قصصية)٢٠٠٦ * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

٨. وَرَدَ الحبّ... وداعاً (رواية)١٩٩٠م " أول رواية عراقية نشرت الكترونياً بعد عام ٢٠٠٣م"

٩. الحُلم بوزيرة (قصص)٢٠١٠ * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

١٠. متاهة أخيرهم (رواية) ٢٠١٣م عن دار صافي – واشنطن، الطبعة الثانية عن دار الورشة الثقافية. بغداد

١١. دمه (رواية) ٢٠١٨ عن فضاءآت – الاردن

١٢. ليلى والحاج – رواية بغداد ٢٠١٩م دار الورشة الثقافية. بغداد

* يكتب بشكل دوري دراسات أدبية في تحسس الأدب الجاد في الصحف والمواقع المحلية والعربية.

الفهرست

الحديقة الافتراضية	**٩**
العقلُ مريض بجماله	**٢٣**
الحلمُ العظيم	**٣٣**
حَلَزونات كنْشَتْ وكوابيسه	**٤٧**
كونشيرتو النسيان	**٦١**
الجميلة شاكيا	**٧٣**
فرنُ الخواجة	**٨٥**
حديقةُ الكتب	**٩٥**
الغافلون	**١١١**
ربيبة السيد المسؤول	**١٢١**
قص قصير جدا	**١٢٩**
ليْسَتْ بشيّءٍ يُذكر	**١٣٩**
أين تكمن تلك الأسئلة؟	**١٤٩**

M o h a m m e d A l A h m e d

فرنُ الخَواجة

1. حركةُ الحيطانِ المتراصّة (رواية) * بغداد 1998
2. حربُ الحكاية أمس واليوم بينَ تدوينِ الفَخّار، والكازوه 1998م- بغداد (دراسة مقارنه)..
3 بعدُ الجمرِ.. قبلَ الرمادِ (قصص) * 1999 دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
4. جمرةُ قرارٍ أبيض * (قصص) بغداد 2000
5. أربعٌ وأربعون متوالية* (متوالية قصصية) 2000
6. ما بين الحبّ والحبّ (قصص) 2002 * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
7. زمن ما كان لي (متوالية قصصية)2006 * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
8. وَرَدَ الحبّ... وداعاً (رواية)1990م * أول رواية عراقية نشرت الكترونياً بعد عام 2003م*
9. الحُلم بوزيرة (قصص)2010 * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
10. مناهة أخيرهم (رواية) 2013م عن دار صافي – واشنطن، الطبعة الثانية عن دار الورشة الثقافية. بغداد
11. دمه (رواية) 2018 عن فضاءات – الاردن
12. ليلى والحاج – رواية بغداد 2019م دار الورشة الثقافية. بغداد

* يكتب بشكل دوري دراسات أدبية في تحسس الأدب الجاد في الصحف والمواقع المحلية والعربية.

9 789922 909127
بغداد - شارع المتنبي
مجمع الميراني - الطابق الأول
هاتف: 07827760787
تصميم: علي فاضل الشويلي

محمد الأحمد
فرن الخواجة
سرديات
2019